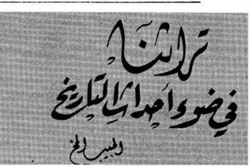


اهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة المتواضعة الى توضيح ما يلي :

1) إن الحركة الاستعمارية التي تمثلت في غزو الشعوب والاستحواذ على طاقاتها المادية والبشرية واكبتها حركة فكرية قصدها دعم تلك الحركة الاستعمارية بافساد عقلية أبناء تلك الشعوب وتكوينهم تكوينا يجعلهم فريسة للعقد النفسية والاغتراب الثقافي فيقبلون ذلهم عن طواعية باعتباره منطق التاريخ والحضارة ، وحتى إن قاوموا وجوده المادي المباشر فلم يتجاوزوا ذلك إلى النواحي المعنوية المتمثلة في الجانب الفكري والثقافي .

2) إن قضية التخلف والتقدم لدى الشعوب لا تفسر بـ « الطبائع » الثابتة عندها بل كلاهما نتاج ظروف تاريخية : إجتماعية – اقتصادية وفكرية متشعبة الجوانب .

3) إن حركة التاريخ في صيرورتها الدائمة يحكمها الاتجاه إلى المستقبل تحت وطأة مشكلات الحاضر التي هي الامتداد التلقائي للظروف الماضية سواء أكان ذلك على المستوى النوعي أو العالمي طبقا لقانون جدلي محدد ، وهذا هو الجانب الموضوعي من القضية أما العامل الذاتي فهو المتمثل في القدرة على الادراك العلمي للقوانين المتحكمة في تلك الحركة في مرحلة تاريخية معينة لأن ذلك وحده هو الذي يتدخل في توجيه المسار التاريخي في الاتجاه المرجو وإلا سقطنا في مفاهيم « الحتمية » بأنواعها . بهذا التصور فقط يكون للبحث التراثي هدف ومعنى .

4) إن إمكانية التطور لا تنبع من تقديس الماضي لذاته لا لشيء إلا لكونه ماضيا بل تكمن في فهم واع لامكانيات التراث المساعدة على التخلص من التخلف بكل أشكاله وأنماطه ، فالمثقف الثوري هو الذي يعي أين تكمن العناصر الايجابية والسلبية في التراث ، وهذا بدوره يحتاج إلى منهج علمي رصين يبعد الدارس عن الذاتية العاطفية والانفعالية كلما طرحت قضية حساسة للبحث .

نشاة الحركة الاستعمارية وتطورها

لقد مهدت الكشوفات الجغرافية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر لبروز الاستعمار البرتغالي ثم الاسباني للعوامل التالية (1)

1) موقعها في إفريقيا ، ومن إفريقيا يمكنها من المغامرة جنوبا في المحيط الاطلسي .

2) الرغبة الصليبية الكامنة في إلانتقام من إلاسلام بتطويقه وإلالتفاف من حوله .

3) الرغبة الشديدة في إنتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول إلى جزيرة التوابل بالدوران حول اليابس إلافريقي أي بطريق بحري بديل .

4) ظهور كل من الاستعماريين : البرتغالي وإلاسباني أولا كاستعمار كاتوليكي وبقاؤهما طويلا كذلك فيما بعد . يؤكد هذا أن البابوية باركت أكثر من مرة امتلاك إلاسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه خارج « العالم المسيحي » وقد كان إنهيار الدولة العربية ، الذي مهد الطريق للاحتلال التركي المتمثل في آل عثمان ، سببا لتوسع البرتغال واسبانيا على حساب العرب تجاريا واستراتيجيا :

وبصورة عامة يعتبر القرن السادس عشر قرن السيادة البرتغالية – الاسبانية الذي فتح الباب لهولندا ، التي أصبحت دولة بحرية قوية ، تفتش عن مناطق نفوذ .

وإذا كان الانقلاب التجاري قد كشف عالما جديدا ، فان الانقلاب الصناعي خلق بدوره عالما جديدا . فمكاسب المستعمرات والاقتصاديات التجارية الجديدة كونت في أوروبا البيئة واحمناخ والظروف الملائمة لظهور الانقلاب الصناعي الذي

في انكلترا حوالي 1820 وانتقل إلى فرنسا 1830 لينتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن نفسه ، وقد خلق هذا الوضع نمطا اقتصاديا جديدا وعلاقات اجتماعية اقتصادية جديدة ، كما خلق علما وفنا وتكنولوجيا متطورة . وانتجت هذه الثورة الصناعية الجبارة تحولات عميقة أصابت البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بلدانها وقربت المسافات بين نواحي الكرة الارضية فتقلص العالم حتى كاد يصبح بيتا واحدا لأسرة واحدة رغم اختلاف ألوان وطبائع وميول وأصول وثقافات أفرادها . وإذا كان الاستعمار – كما يقول الدكتور جمال حمدان – قديما هو صراع الرعاة مع الزراع ، فانه تحول بعد الانقلاب الصناعي والثورة العلمية إلى صراع بين الصناع والرعاة بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية بل بين العصر الصناعي والعصر الحجري أحيانا (2) فاتسع بذلك الفارق بين أنموذجين للانسان في هذا الكون . وهكذا اتسم القرن التاسع عشر بأنه قرن التطور الراسمالي على المستوى الاقتصادي والتطور التكنولوجي والعلمي على مستوى الابتكار والاختراع فظهر اقتصاد مفتوح الشهية بل حاد الشهوة كما يضيف الدكتور حمدان . واشتد الانتاج بالجملة ليباع بشراهة وانتهى ما يعرف باقتصاد الاكتفاء الذاتي : وأصبح متعذرا على مجتمع ما أن يوفر مقومات وعناصر صناعية داخل حدوده وكل هذا أدى حتميا إلى البحث عن موارد الخامات وأسواق تصريف البضائع المصنوعة منها . وكلما ازداد تطور النظم الراسمالية الأوروبية كلما اشتدت روح التنافس والتملك والتوسع وبرزت بسبب ذلك طبقات اجتماعية متعارضة المصالح والأهداف تتمثل في من يملك ومن لا يملك : الطبقات الكادحة وأصحاب رؤوس الأموال بين البروليتاريا والبرجوازية ، ولم تكتف الراسمالية الغربية بذلك بل خلقت صراعات سياسية بين طبقات متناحرة بين الدول المختلفة ممن يملكون ولهذا يعد الاستعمار بحق أعلى مراحل الراسمالية كما قال لينين (Lenine) لقد فشلت أوروبا في التغلب والسيطرة على العالم العربي بحضارتها التجارية لعوامل حضارية تتمثل في :

أ – انتماء العرب الى حضارة عريقة وتراث فكري علمي وفلسفي وفني كان الأساس في قيام النهضة الأوروبية .

ب – ما لهم من قوة لا يستهان بها ولو أنها في طور انحدارها بينما على العكس من ذلك نلاحظ أن الهند وجزرها فشلت أمام الضغوط الأوروبية المتزايدة ، ولكن ما أن تحولت أوروبا إلى حضارة الصناعة حتى سهل اخضاع العالم العربي كغيره (3)

تلك حقائق تاريخية عن الحركة الاستعمارية الغربية منذ بدايتها حتى تطوراتها في القرن الماضي ، ولم تكتف هذه الحركة باحتلال ما يسمى « العالم الثالث » اليوم والسيطرة على أراضيه وموارده بل سعت بكل جدية وشيطانية إلى ابتكار وسائل فكرية للسيطرة على عقول أبنائه ممن تمكن من الدراسة والثقافة وحصل له زاد علمي معين . فكانت تلك النظريات العنصرية الكثيرة ، المختفية وراء ستار « العلمية » ، التي انتجها العقل الاستعماري . ولكلمة « العلمية » تأثير سحري في نفوس شباب عربي بهره ما أنجزه الغرب في كل الميادين ، متطلع إلى بناء أمة متقدمة ناهضة فوقع الكثير من الشباب العربي تحت سيطرة الفكر الغربي وانقاد بسهولة لكل ما يمليه عليه هذا الفكر دون تمحيص أو نقد . ولعل المرحلة الأولى من احتكاكنا الحديث بالحضارة الغربية قد تميز باندفاع نحو كل صيحة ثقافية أو فكرية أو فنية ... الخ تحدث في أوروبا وكأنها إشارة الخلاص المنتظر ، ولعل الآن قد بدأت تلوح في الأفق آمال بناء انسان واع يعرف ما يأخذ وكيف يأخذ وهذه بعض النماذج من التفكير الغربي العنصري في نواح مختلفة من ميادين النشاط الذهني .

1) في المجال اللغوي :

أدت البحوث اللغوية عند المتخصصين في هذا الميدان إلى القول بوجود جنس « آرى » وجنس « سامي » لكل منهما خصائص جسمية وعقلية متميزة عما عند الآخر وفي سنة 1788 تفطن العالم اللغوي (Jones) إلى ما يوجد من تشابه بين اللغات التالية : السنسكريتية ، اليونانية ، اللاتينية ، الالمانية ، والسلتية ، فجعله ذلك يعتقد في وجود لغة أصل لهاته اللغات وفي سنة 1813 أطلق على هذا الأصل الموحد اسم « الهند اوروبية » العالم توماس يونج (Thomas Young) وأطلق فيما بعد على متكلمي هذا الأصل المشترك في التاريخ البعيد اسم الجنس « الآرى » (4) وهكذا تكون هذه اللغات لغات ثقافة وعلم وفن لأن أصحابها منهذا الجنس المتميز المتفرد . وتكون اللغات السامية ومنها العربية بصورة خاصة لغات تخلف وانحطاط ، وإذا أراد أهلها التقدم والتخلص من عصورهم الوسطى

والدخول الى عصور التنوير فما عليهم إلا أن يتخلوا عنها ويستبدلوها بإحدى اللغات الاوروبية المتقدمة . وقد تعرضنا لأمثلة لبعض المثقفين العرب وأساتذتهم من المستشرقين من قبل وما نقوله الآن هو أن البحث العلمي الرصين كشف عن تهافت هذا المنطق كما كشفت عن تهافته تجارب شعوب كثيرة تقدمت رغم تخلف لغتها أو تخلفت رغم تطور لغتها

2) في المجال الفلسفي :

كان القرن التاسع عشر مرتعا خصبا لظهور بذور عنصرية علمية وفلسفية وكان الفرنسيون — مع الأسف الشديد — من أوائل الذين سهروا على بذر هذه البذور ورعايتها والسهر على نشرها وامتدت آثار هذه النزعة الغربية حتى هذا القرن . فقد صرح زعيم العنصرية « ارنست رينان » (Ernest Renan) بأفضلية الجنس « الآرى » على الجنس « السامي » وكان لهذا الرأي تأثير قوي في الأوساط الغربية . والذي ساعد هذا المفكر الفرنسي الكبير هو أطلاعه الواسع على اللغات السامية والتراث الإسلامي والشرقي بصورة عامة . وسار على نهجه فرنسي آخر هو ليون غوتيي (Léon Gauhier) (كان أستاذ فلسفة بجامعة الجزائر وهو الذي حقق كتاب (فصل المقال لابن رشد) . قال هذا الرجل بوجود عقل سامي وعقل آرى في بداية هذا القرن وعنده أن « العقل السامي لا طاقة له إلا على إدراك الجزئيات والمفردات منفصل بعضها عن بعض أو مجتمعة في غير ما تناسب ولا انسجام ولا تناسق ولا ارتباط فهو عقل مباعدة وتفريق Esprit séparatiste لا جمع وتأليف . أما العقل الآري فعلى عكس ذلك يؤلف بين الاشياء بوسائط تدريجية ، لا يتخطى واحدا منها الى غيره الا على سلم متداني الدرج لا يكاد يحس التنقل فيه ، فهو عقب تجميع ومزج (Esprit fusionniste) . (6)

فمن العبث أو الخرافة القول بأن العرب كان لهم فكر وكان لهم قدرة على استخلاص القوانين ووضع الفروض والنظريات بحكم طبيعتهم السامية تلك أولا ، وبسبب الاسلام الذي حدد منآفاق تفكيرهم ثانيا . فقد انتزع الاسلام من بينهم كل بحث نظري وأضحى المسلم في رأي رينان يحتقر العلم والفلسفة . ومن الجدير بالذكر أن المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) قد بين في كتابه (الاسلام والراسمالية) (تعريب نزيه الحكيم طبعة دار الطليعة 1968) كيف أن الراسمالية كنظام اقتصادي نشأت في الغرب بسبب الجنوح الى العقلانية في تنظيم النشاط الاقتصادي والانساني وتساءل عن السبب الذي كان وراء اتجاه العالم المسيحي نحو الراسمالية فتطور بها وسيطر على العالم بينما لم يتجه العالم الاسلامي إليها . فان قيل بأن الاسلام ضد العقل فهذا غير منطقي لما نجد من عديد الآيات التي تحث على استخدام العقل وإن قيل بسبب تحريم الاسلام للربا الذي يعد حجر الزاوية في التراكم المالي اي رأس المال فان التحريم وارد في العهدين : القديم والجديد . وليس هذا مما يدخل في بحثنا ولكن أوردناه لنشير بان الفكر المادي الجدلي نفسه لم ينف عن الاسلام العقلانية التي كان نفاها عنه رينان كلية ورددها تلاميذه عربا وأوروبيين ولقد وقع رينان في التناقض حينما اعتقد بأن الفلسفة الاسلامية أو العربية (كما يظهر للبعض أن يسميها بذلك) هي فلسفة يونانية مكتوبة بأحرف عربية ذلك لأن العرب والمسلمين لم يكتفوا بشرح ونقل التراث اليوناني العلمي منه والفلسفي بل أضافوا له وزادوا عليه (ابن سينا ، الغزالي ، ابن رشد ، البيروني ، ابن الهيثم ... الخ)

ورينان نفسه يعترف بأن الفلسفة الاسلامية الحقة توجد في علم الكلام وقد تكفل رجال مخلصون للحقيقة ، منصفون للبحث العلمي بالرد على رينان وغيره . يمكن تلخيص أفكارهم فيما يلي :

1) ليس هناك أساس علمي لتفسير نشأة الحضارات وتطورها على أساس عرقي .

2) لم يتوصل البحث في الاجناس حتى عصرنا هذا رغم تطور المناهج ووسائل الاتصال الى وضع نظرية دقيقة لتمييز الأجناس المختلفة ، والسبب واضح لأن اختلاط البشر قديما وحديثا جعل من الصعب البت في ذلك وكلنا يعرف ما جرته مثل هذه النزعات العنصرية من ويلات على الانسانية

3) لعله من الثابت علميا أن التقدم الحضاري يرجع الى الشعوب التي اختلطت فيها الاجناس كما أنه ليس هناك دليلا ماديا على أن شعبا ما استطاع بمعزل عن الأجناس الأخرى أن ينتج حضارة حقيقية وأصيلة . فالتأثر والتأثير قانون جدلي يحكم الأشياء والظواهر في الكون كله .

4) إن الحضارة الاوروبية الحديثة التي دفعت بالغربيين إلى الشعور بمركب من الاستعلاء والتفوق والامتياز كان منبعها ومورد‌ها بغداد والاندلس وصقلية ومنافذ أخرى كثيرة .

5) إن الحضارات الشرقية كانت صانعة التطور الانساني لأنها أعرق وأقدم الحضارات الانسانية عندما لم يكن لأوروبا وجود . وحتى التراث اليوناني لم يعرفه الغربيون إلا عن طريق التحليل والشرح والترجمة العربية (شروح ابن رشد لأرسطو مثلا)

6) وحينما بدأ الفكر العربي ,مرحلة الترجمة للفكر اليوناني والهندي والفارسي أين كان الفكر الاوروبي وأين كان امتيازه وتفوقه .

يقول الفيلسوف الانقليزي جون ستيوارت ميل (Jhon Stuart Mill) (إن رد الفروق التي تشاهد بين الأمم إلى ما في طبائعها من اختلاف إنما هو من نوع التهرب ، هو التهرب من درس الأحوال الاجتماعية وتحري عواملها الأساسية (7)

ويقول العالم الاجتماعي ريبليه (Ripley) (لننبذ هذه الخرافة التي تعزو فضيلة خاصة أو نكاء خاصا إلى جنس من الاجناس البشرية) ويقول الباحث الاجتماعي نوفيكوف « إن التعليل بطبيعة العرق إنما هو بمثابة معطف سهل الاستعمال معطف نستعمله لنستر به جهلنا وكسلنا الذهني ، لنستر به جهلنا لحقائق الأشياء وكسلنا عن تحري الأسباب » (8)

في المجال الاجتماعي والسياسي :

يعتقد أغلب المؤرخين للحضارة الأوروبية بأنها نتجت عن تفاعل عناصر ثلاثة من الماضي هي التي حددت خصائصها الكلية في مقابل الحضارات الأخرى الشرقية (9) .

ـ 1 ـ العهد القديم والجديد اللذان يقدمان تفسيرا لموقف الانسان من الحياة والخلق وما نتج عنهما من صياغة لنظريات وعقائد ومراسم وطقوس قامت كلها بدور كبير في حياة الغرب خلال مختلف مراحل تطوره التاريخي وقد أخذ الاوروبيون نلك عن بني اسرائيل فهؤلاء عنصر من عناصر الحضارة الأوروبية الحديثة .

ـ ب ـ فكرة الدولة والتشريع والقانون بمعناه التنظيمي المحدد للعلاقات بين السلطان والرعية وما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الحاكم والمحكوم وما يتصل بكل نلك من حقوق مدنية وتشريعية في كل الميادين وهذا هو العنصر الثاني من عناصر الحضارة الأوروبية أخذه الأوروبيون عن الرومان .

ـ ج ـ مبدأ الديمقراطية . على أساس هذا المبدأ اعترف للفرد بشخصيته وحقه في التعبير في حين أن الشعوب الأخرى لم تعترف لهذا الفرد بوجود بجانب السلطة الالاهية للملوك وقد اتخذ المؤرخون من اقدم شعبين متحضرين في التاريخ القديم : مصر وفاس من ناحية والاغريق الذين اتصلوا بهم من ناحية ثانية ، محورا للمقارنة ويلاحظ من دراسة أحوال تلك المجتمعات القديمة غياب شخصية الفرد بل موته بسبب طغيان واستبداد الملوك ودولهم التيوقراطية في الحضارتين العظمتين : المصرية والفارسية . وهنا نأتي إلى العنصر الثالث الذي أثر في الحضارة الاوروبية الحديثة وهم الاغريق المصدر الأول لظهور الديمقراطية في العالم .

ـ د ـ في المجال الديني :

إن مفهوم الدين يختلف بين اليونان وتينك الحضارتين .

1) الآلهة عند الاغريق يشبهونهم إذ لهم عواطف وتقع بينهم خلافات ونقاش كما هو الحال تماما عند البشرة يقول الدكتور عبد الرحمان بدوي « فالنظرة إلى الكون والنظرة إلى الحياة العملية والنظرة إلى الدين كل تلك النظرات كانت الروح اليونانية تحاول فيها أن تتحرر من قيود الطبيعة الخارجية . فنراها في الدين مثلا تنزل الآلهة الذين هم قوى طبيعية فوق الانسان إلى جبل الأولب وهذه الآلهة كما سنرى فيما بعد آلهة انسانية صرفة تخضع لما يخضع له الإنسان وتتأثر في وجودها بما يتأثر به الوجود الانساني » (10) .

2) كان الدين اليوناني يخدم الفرد في الدنيا بينما كان الدين عند تلك الشعوب الشرقية يصرف الانسان عن الدنيا (وإن كان ماركس فيما بعد قد جعل كل الأديان تصرف الانسان عن الحياة وتلعب دور المسكن للأوجاع الناتجة عن الحرمان المادي والمعنوي ولهذا السبب كانت كلمته المشهورة : الدين أفيون الشعوب) . الدين عند الاغريق حافز من حوافز العمل والكفاح بينما هو عند الآخرين هروب وفرار إلى عالم آخر ـ عالم الخلاص ـ عالم ما بعد الموت عالم السعادة الأبدية .

3) وقد جاء هذا التصور المختلف بين الاغريق وشعوب الشرق القديم بسبب اكتشاف الأولين لمبدأ الديمقراطية في الحكم وهو المبدأ القائم على احترام الفرد والاعتراف له بشخصيته في الوجود الأمر الذي لم يعرفه أهل الشرق . (11)

مناقشة هذه الآراء :

1) اذا كانت النظم السياسية الغربية وريثة الديمقراطية اليونانية فاننا نتساءل لماذا لم يستمر النظام الأثيني مطبقا في الغرب عبر التاريخ الروماني والعصور الوسطى التي سيطر فيها الفكر الكنسي المغلق وسادت فيها محاكم التفتيش المعروفة التي كانت تطارد أحرار الفكر ورجال العلم (لعل محاكمة غاليلي كافية للتدليل على اضطهاد الكنيسة للفكر العلمي) . وقد كانت الكنيسة تملك قائمة من الكتب التي تحرم قراءتها والويل لمن يعثر عنده على واحد منها .

2) ان المنطق يفرض أن تكون الدولة البيزنطية وهي أقرب إلى الغرب جغرافيا ولغويا وتاريخيا . مثالا للدولة الديمقراطية بل الثابت في التاريخ أن حكمها كان ثيوقراطيا حتى أن بعض أباطرتها ادعى الالوهية .

3) ممارسة الحكام ورجال الدين في القرون الوسطى في الدول الاوروبية كانت ممارسة اضطهاد واستغلال للشعوب حتى عصفت بهم الثورة الفرنسية ذات المضمون البورجوازي الثوري والتي آل أمرها إلى ديمقراطية يحكمها رأس المال والاستغلال فبقيت ديمقراطية شكل دون مضمون حقيقي . كل هذه الملاحظات تشهد بتعطيل تأثير التراث اليوناني في أوروبا وحتى بعض المدن اليونانية الأخرى التي شهد أهلها تجربة أثينا الرائدة (12) .

ولقد كان عصر الرسول عليه السلام وحتى نهاية عصر الخليفة الثاني مثالا للديمقراطية شعارا وممارسة اعتمادا على مبدأ الشورى فلماذا لم يستمر هذا المبدأ بحكم حتمية التاريخ أو حتمية تأثير الماضي في الحاضر أو وراثة الحاضر والمستقبل لصفات الماضي .

لو أخذنا بهذا المفهوم الغربي لكان معناه أن الاوروبي سيبقى وريث الديمقراطية إلى الأبد فكرا وممارسة وسيبقى الشرقي وريث الحكم الاستبدادي والطغياني إلى الأبد فكرا وممارسة . ولو أخذنا بهذا المفهوم لكان معناه القول بسيطرة الماضي على الحاضر . إن الحقيقة تقول وان الديمقراطية لم تكن امتدادا لليونان ولا لغيرهم أو بسبب الاطلاع على تراث الاغريق السياسي والاجتماعي في القرن الخامس قبل الميلاد أو القرن الأول للهجرة . لقد نشأت الديمقراطية استجابة لواقع اجتماعي واقتصادي وحضاري لم تكن تعرفه أوروبا من قبل . إن المشكلات الجديدة المتولدة عن التطور التاريخي حتمت هذا الشكل من التنظيم السياسي وتحديد سلطة الحاكم وأشكال ممارسة الانسان لحقه الطبيعي في الحياة والمشاركة . ولما رجع المفكرون إلى الماضي وجدوا تماثلا بين هذا الشكل السياسي للتنظيم الاجتماعي وبين نظام أثينا فكان إعجابهم بمرحلة تاريخية يعتبرون أنفسهم من ورثتها وكان كلامهم عنها كلاما نظريا أكاديميا .
إن انتقال أوروبا من عصر الاقطاع إلى عصر الراسمالية أثر في بنائها الاقتصادي والاجتماعي فظهرت كتابات مونتسكيو وغيره عن الفصل بين السلطات وتحديدها وتنويع الحقوق والواجبات فلم تكن الديمقراطية وليدة تحقيقات تراثية أو دراسات أكاديمية بل الملاحظ غالبا أن جهد المؤرخين يكون تبريرا للواقع أو برهانا عليه . ولمزيد التوضيح لهذه الفكرة أعود إلى ما قام به المفكرون العرب المعاصرون لنرى كيف كان رجوعهم إلى الماضي يتحدد طبقا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية في أقطارهم وطبقا للتأثير الغربي الحضاري في مجتمعاتهم .

لقد كان للاحتكاك بين الشرق والغرب الذي نشأ منذ حملة بونابارت 1798 م وبالذات بعد قيام دولة محمد علي العصرية (لأنها فتحت النوافذ على العالم الخارجي) أن ظهر تيار فكري ليبرالي اسلامي له قسمات من تأثير الغرب برز نلك عند زعماء الاصلاح فقد نادى حسن بن محمد العطار (1766 — 1835) إلى ضرورة التغيير بالاخذ عن أوروبا العلوم التي يحتاج إليها الشرق العربي . واهتم محمد علي بارسال البعثات التعليمية إلى فرنسا وانكلترا وايطاليا وطالب المبعوثين بعد عودتهم بنقل معارفهم إلى الناس فقاموا بترجمة نحو ألفي كتاب ونشرة علمية وأمر بقراءة أول كتاب عن أوروبا « تلخيص الابريز » لرفاعة طهطاوي (1801 — 1872) في جميع المدارس وكان هذا الرجل نموذج المثقف الليبرالي الذي أثمرته سياسة محمد علي التعليمية إذ

عالج في كتابه « مناهج الألباب » (13) كل جوانب الاصلاح الاجتماعي ودعا المواطنين للتفريق بين أخوة الدين وأخوة الوطن . وناقش حقوق وواجبات الحكام ونادى بأن يكون « الحكم بالكلية للرعية » وانه « لا حاجة لملك أصلا » وأن « الامة يجب أن توكل عنها من تختاره للحكم » وشجع على الاجتهاد لتكون الأمة في مستوى الممارسة الحديثة لشؤونها وأوضح أن الشريعة الاسلامية تفيد في تعليم المبادىء الاجتماعية وأن الاحتياجات الاقتصادية للتطور الحضاري العصري تجعل من الضروري الاستفادة من القوانين التجارية والتشريعات الأوروبية وانتقد الأزهر لابتعاده عن دراسة المواضيع العلمانية وأكد أن انعاش الحركة الثقافية في الأزهر رهن بدراسة الفنون الحديثة للادارة والحكم ومختلف العلوم الأوروبية الحديثة أما من حيث أفكاره السياسية في كتابه المذكور فانها تتلخص في :

1) تثبيت القومية المصرية :

2) تثبيت فكرة الدولة العلمانية أو الزمنية

3) تثبيت مقومات المجتمع البورجوازي التقدمي سياسيا واقتصاديا . واستمر هذا التيار الفكري الليبرالي المتأثر بالليبرالية الغربية على يد الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما وأهم قسمات هذا الاتجاه الذي قاده الأفغاني هي (14) .

1) العقلانية : نقد أهل النقل والمتبعين لظواهر النصوص وحفظ المتون والملخصات دون وعي ، أو الموسوعات التي تجمع أشتات ما دونه القدماء دون إضافة جديد أو إبداع وابتكار كما كان الحال من قبل عند المسلمين الاولين . (راجع نماذج من ذلك في كتاب تجديد الفكر العربي . د. زكي لحبيب محمود) .

2) النزعة التحررية : مواجهة الحكم الاستبدادي الفردي الذي ساد الشرق قرونا .

3) العلمانية : وقعت مواجهة ما تراكم على الاسلام من قيم وأفكار بعيدة عن أصوله الجوهرية كنظرية الحق الالاهي الاقطاعية والانظمة والطقوس التي تكاد تشابه الكهنوت الغريب عن جوهر الدين

4) نقد النظام الطبقي المتوارث والثابت وهو النقد الموجه الى الارستقراطية التركية لان النظام التركي كان يمثل حجر عثرة امام صعود بورجوازية وطنية جديدة تحترم العمل وتنبذ البطالة وتسعى لان يكون الكسب والسعي والثروة هي المعايير المحددة للوضع الاجتماعي وليس النسب والحسب الموروث ولكن – كما يضيف الاستاذ محمد عمارة – بسبب ما في التراث الاسلامي من كتابات عند القدامى تتحدث عن الاموال والخراج وتفسر الآيات القرآنية الاجتماعية بما من شانه ان يناصر العدل والتكافل الاجتماعيين فان الليبرالية الاسلامية كانت على يسار الفكر الليبرالي الغربي . الا ان محمد عبدة قد كان يمثل في نقطة سياسية فرقا بين الليبرالية الغربية والاسلامية تتمثل في ايمانه بالمستبد العادل الذي لابد منه لحكم الشرق ودفعه نحو الصلاح . ان الظروف التاريخية التي وضعت الشرق في موقف الاعجاب بالحياة الغربية في مختلف جوانبها ودفعته الى البحث في تراثه الديني والفكري عما يتلاءم وتلك الحياة الجديدة هذه الظروف بالذات وضعت الشرق العربي الاسلامي مرة اخرى امام ما حدث بعد 1917 و 1949 وهما التاريخان اللذان يرتبطان في اذهان البشر بانتصار الثورة الاشتراكية عمليا في كل من روسيا والصين وهو الامر الذي مهد له نضال طويل للفكر الاشتراكي الذي كشف عن فوضى وتعفن ولا اخلاقية النظام الراسمالي المقام على استغلال الانسان لاخيه الانسان . وهكذا وجد العالم نفسه موطنا للصراع بين كتلتين : راسمالية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية واشتراكية بقيادة روسيا والصين وهكذا وجد العالم العربي والاسلامي بحكم موقعه الاستراتيجي وامتلاكه لتراث عظيم وبحكم صراعه مع الاستعمار المباشر (بريطانيا وفرنسا) الممثل لدول راسمالية وصلت درجة الاحتكارية وجد نفسه مظطرا لربط استقلاله السياسي بتحول اجتماعي اقتصادي والا كان تحرره شكلا دون مضمون او حبرا على ورق وغير مستجيب لحركة التاريخ ، وبسبب هذا ظهرت تلك الاشتراكيات الكثيرة في مختلف البلاد العربية والاسلامية . واتجه التفكير النظري لصياغة نماذج من التوفيق بين الدين والاشتراكية الدين مبدأ يؤمن به المسلم والاشتراكية واقع ومستقبل تفرضه التحولات الداخلية والخارجية . ولهذا السبب بالذات اصبح ابوذر الغفاري المثال للاشتراكية ولهذا السبب بالذات اعيد النظر في آراء وافكار لحركات فكرية اسلامية كان ذكرها يختم باللغة كالمعتزلة (دفاعا عن العقلانية) والخوارج (دفاعا عن الديمقراطية) والقرامطة وثورة الزنج وغيرهما (دفاعا عن

الاشتراكية) وبين يدي في مجلة « منبر الاسلام (15) » مقال تحت عنوان (اشتراكيتنا الاسلامية هي الاشتراكية الام) للاستاذ عبد الغني الراجحي جاء فيه على سبيل المثال (ان الاشتراكية العربية بل والاشتراكيات العالمية الاخرى ما دامت في مناهجها واساليبها وقراراتها لا تتعارض مع اصل من اصول الاسلام فهي نفس الاشتراكية الاسلامية لانها مع روح الاسلام واهدافه وغاياته المنشودة . ويضيف قائلا :

(فقد كره الإسلام أن يتمركز المال دولة بين الأغنياء وسماهم مستخلفين فيه وشرع الزكاة والكفارة والنفقة والوقف والوصية والنذور والأضاحي وتقسيم الفيء والخراج والغنائم وأعطيات بيت المال وكثيرا من صنوف البر والعون مبينا مصارف ذلك كله وقال « إن في المال حقا سوى الزكاة – وليس من المسلمين من بات شبعانا وجاره جائع – ولا يحتكر إلا مخطىء ... ومن لا يهمه شأن المسلمين فليس منهم »)

وفي عصر نزول القرآن وحياة الرسول كان في الاجمال الكفاية لأنه كان في الحياة وأساليبها إجمال وبساطة وفي عصورنا الأخيرة هذه لا يغني إجمال عن تفصيل فقد انداحت دائرة الحياة وجدت للناس اقضية كما قال عمر بن عبد العزيز « – بقدر ما أحدثوا من مشكلات » نتيجة لاتساع دائرة الحياة وتعقدها وتشابك الأمور فيها مشتجرة متصارعة فلا يجوز للاسلام أن يقف حيال ذلك مكتوف الأيدي عاجزا عن أن يلاحق هذه المشكلات بالحلول بعد أن أنزله الله دينا متكفلا بمصالح العباد وسعادتهم في المعاش قبل المعاد »

وقد بين الأستاذ الراجحي أن الأمور المباحة في الاسلام قد يعرض لها ما يجعلها حراما ممنوعا لمصلحة يراها الحاكم وولي الأمر ضرورية للصالح العام الذي يجب التضحية في سبيله بالمصالح الفردية : ان في الآية الكريمة وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ما يعني أصلا اشتراكيا نستطيع بواسطته أن نعتبر أصحاب الأموال في أموالهم مستخلفين وكلاء عن الله فهو المالك الحقيقي للمال .

والمال حق للمجتمع كله وبهذا يصرح الحديث القدسي الذي يقول الله فيه : المال مالي والاغنياء وكلائي

ويقول الاستاذ صلاح عزام (17) الى شباب أمتي وديني الذين يلهثون وراء طلائع رواد الاشتراكية وشهداء حرية الكلمة الشريفة من خلال شمس الغرب ونسوا أن صفحات تاريخنا الشرق العربي المسلم بالذات هي طلائع المجد نحو نور الحياة الساطع الذي بهر الدنيا وسيظل يبهرها ليدفعها نحو أجمل ما في الحياة « ثم يضيف » ولقد عانى أبو ذر الغفاري في حياته من طبقة المنتفعين بدين الله ومن أرستقراطية العرب وراسماليها وعانى أيضا بعد مماته من بعض المتعربين الذين ظلموا دعوته لينفروا من تاريخه شباب المسلمين المتفتحين نحو الحق .

وأرادوا أن ينسبوا اليه سببا من أسباب مقتل عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء « أما سيد قطب فكتابه » العدالة الاجتماعية في الإسلام « الذي ألفه يعد نظرية الاخوان المسلمين في التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كما أن كتاب « إشتراكية الاسلام » الذي ألفه الدكتور مصطفى السباعي السوري ونال به شهرة كبيرة وذاع صيته حتى أنه وزع في مصر توزيعا شعبيا أضعاف توزيعه في بلد آخر (18) دعا هذا المفكر العربي المسلم إلى تطبيق الاشتراكية الاسلامية مشيرا إلى أن التعاون والتضامن الاجتماعيين من مكونات الاسلام ويقول بأن النهضة الأوروبية هي من صنع الحضارة الاسلامية ثم يعطي رأيا في الاشتراكية مفاده أنها تمنع الفرد من تثمير راس ماله في هدف واحد هو المزيد من الإثراء والربح على حساب بؤس الآخرين ولهذا فالاسلام له اعظم برنامج ثوري في التطبيق المباشر ومحصن من الأمراض التي أنتجتها الايديولوجيات الاشتراكية وهذا هو أساس الفقه الاسلامي منذ البداية . ولا يفوتنا أن نذكر أن الدكتور أحمد خلف الله نشر مقالا في مجلة الكاتب القاهرية (تموز 1960) تحت عنوان « المضامين الاشتراكية في القرآن » يشير فيه إلى أن الدين الاسلامي هو أول أسس الاشتراكية العلمية العربية الرشيدة المؤمنة ويرى أن هذا النوع من الاشتراكية يرتكز على مبادىء منها الايمان بالله .

وهذا الدكتور صبحي صالح يقول في مؤلفه « المسيحية والاسلام في لبنان » بأنه « لا ينفي شيئا مما زخرت به بطون المجلدات في فقهنا الاسلامي من آراء ناضجة في النظم الاقتصادية وقواعد العدالة الاجتماعية ومن ميل واضح الى ضرب من الاشتراكية المؤمنة البناءة التي لا تجحد قيم

الروح » ويقول الدكتور حسن صعب في كتابه « الاسلام وقضايا العصر الاقتصادية والاجتماعية » ونبني مستهدفين المقاصد الالاهية لسعادة الانسان وخيره التي استخرجها علماء الاصول من كتاب الله كمقاصد للشرع في أي بناء قانوني أو سياسي أو إقتصادي أو إجتماعي يبنيه الانسان وهي :

1) المحافظة على النفس الانسانية وحمايتها
2) المحافظة على الدين أي حرية الاعتقاد .
3) المحافظة على الأسرة .
4) المحافظة على العقل أو حرية الفكر وسموه .

5 المحافظة على المال أو على الملكية الشخصية الخلاقة للخير .هذه هي مقاصد البناء التي أجمع علماؤنا على أن يلزمونا بها وأما أشكالها وتنظيماتها ووسائلها فنحن أحرار في أن نختار لها البنية التي تؤدي لتحقيق هذه المقاصد .

ويكتب أحد كبار الدارسين الشبان الجادين للتراث العربي الاسلامي وأكبر محقق لاعمال زعماء الاصلاح وهو الأستاذ محمد عمارة ما يلي « والشخصيات الثائرة التي أتعرض لحياتها ونضالها في هذا الكتاب تكون مجتمعة قضية كبرى من قضايا تراثنا العربي الاسلامي تقول بأن هذا التراث وهذا التاريخ رغم كثير من صفحاته المظلمة قد كان دائما حافلا بالعمل الثوري والموقف والكلمة الثورية على امتداد العصور وتنوع المدارس والمذاهب وفي مختلف حقول الفكر وميادين النشاط . ففي عصر البعثة وصدر الاسلام نجد الصحابي الجليل ابا ذر الغفاري يجسد لنا موقفا ثوريا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع بعد فتح المجتمعات الاقطاعية الزراعية الغنية في مصر والشام والعراق وبالذات في عهد عثمان .

وفي ظل الدولة الأموية يقدم لنا غيلان الدمشقي ونضاله موقفا ثوريا وفكرا ثوريا تمثل في مناهضته لفكر الجبر والجبرية الذي يبرر المظالم ويدعو للسكوت عليها والرضى بها وفي موقفه العملي أثناء مصادرة ممتلكات الأسرة الحاكمة على عهد عمر بن عبد العزيز ... ثم يجسد هذا الموقف الثوري عندما يقبض عليه ويحاكم ويصلب ...

وفي عصر الدولة الايوبية والمماليك يتقدم العز بن عبد السلام من فوق أرضية فكرية محافظة . ـ أرضية الاشعرية ليقود نضالا فكريا ثوريا ضد الجمود والتخلف وليقف بحزم وصلابة ضد الظلم والتفاوت بين الناس وضد البدع والانحرافات وضد الصليبيين والتتار وليصارع الظلمة والخونة من السلاطين والحكام (18) .

ولا يفوتنا أن نذكر بما يكتب في المجال العلمي البحت بأقلام إسلامية تحاول التوفيق بين ما وصل إليه العلم من نظريات جديدة واكتشافات وبين آيات قرآنية من هنا وهناك تبرز أسبقية القرآن في الحديث عن تلك الاكتشافات والنظريات من هذه الاقلام يمكن أن نذكر د : مصطفى محمود في تفسيره العصري للقرآن الذي بيع منه حوالي ثمانين ألف نسخة في مصر وهو رقم خيالي بالنسبة لقضية الطبع والنشر في مصر وما يكتبه التونسي الدكتور البشير التركي في افتتاحيات مجلة العلم التي يصدرها هو وبعض من الأساتذة الآخرين .

ويعتمد كل هؤلاء الكتاب على مشابهات لفظية بسيطة في إثبات دعواهم . وهكذا يتحول القرآن لديهم إلى كتاب في علم الطبيعة أو الجيولوجيا أو التكنولوجيا الفضائية . وهناك من يرفض مثل هذا الاتجاه في تحميل النص الديني ما لا طاقة له به كالدكتورة بنت الشاطىء لأنها ترى أن الوظيفة الأخلاقية لا الوظيفة العملية هي الهدف الأساسي من النصوص الدينية . وإني لهذا الرأي الذي تدافع عنه بنت الشاطىء لأميل .

مدنين في 20/4/1975

هوامش

(1) د. جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير دار الهلال عدد 205 افريل 1968 ـ الفصل الثالث : عصر الكشوف الجغرافية وص 126
(2) المرجع نفسه ص 127 — 129
(3) المرجع نفسه ص 144
(4) اطلق هذا اللفظ بالذات على متكلميها لوجود كلمة « أريانا » مذكورة في الكتاب المقدس القديم « أفستا »
(5) بينا هذا في دراسة قدمت لمهرجان ابن منظور بقفصة افريل 1974 وصدرت مطبوعة ضمن ابحاث الملتقى
(6) ورد هذا الكلام في كتاب له يحمل عنوان « العقل السامي والعقل الآرى » الذي طبع 1923 نقلناه عن كتاب : في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه للدكتور ابراهيم مدكور ط ثانية ـ دار المعارف بمصر ص 16
(7) ساطع المصري : ابحاث في القومية العربية دار المعارف بمصر 1964 ص 111
(8) المرجع نفسه ص 111
(9) د . عبد العزيز الاهواني ـ ازمة الوحدة العربية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط 1 ،1972 ص 143 — 144 ص
(10) د . عبد الرحمان بدوى : « ربيع الفكر اليوناني » مكتبة النهضة المصرية ط 3 — 1958 ص 41
(11) د . عبد العزيز الاهواني المرجع نفسه ص 146
(12) د . عبد العزيز الاهواني المرجع نفسه ص 146
(13) الاستاذ ميشال كامل « حوار التراث والعصر في الفكر المصري الحديث » مجلة الآداب العدد الاول يناير 1973
(14) الاستاذ محمد عمارة ـ مجلة الطليعة اغسطس 1972 ص 26 ـ ص 27
(15) ان تاريخها يرجع الى سنة 1964 ولا اعرف الشهر بسبب غلافها الممزق
(16) « شهيد الكلمة ابو ذر الغفاري » : الدار القومية للطباعة والنشر 1966
(17) ميشال كامل ـ مجلة الآداب المذكورة
(18) « مسلمون ثوار » كتاب الهلال 1971 ص 10 — 12

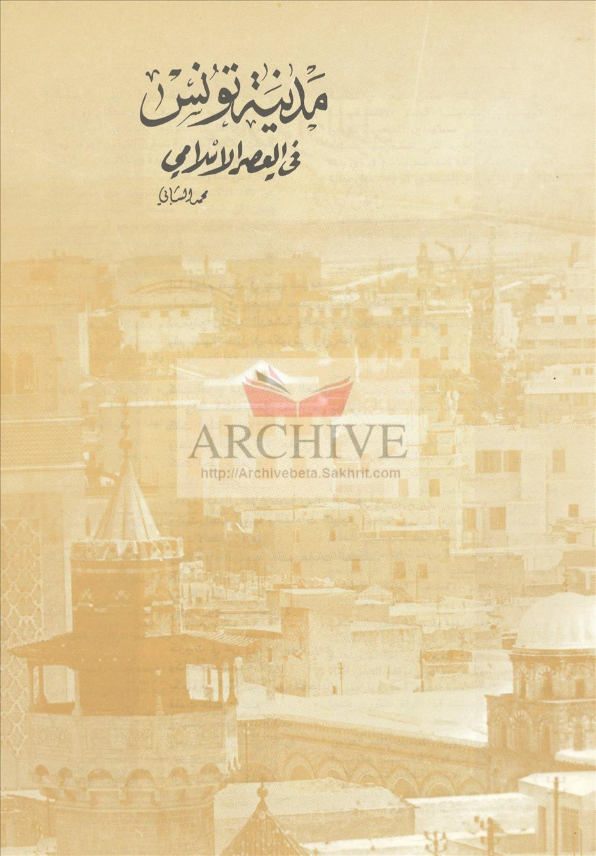
عن الحلم ومواقيت الغياب

محمد رضا الكافي

انا احلم تنبت في يدي سبخة
ولم تنحدر في خصوبة صدري نخلة عجفاء .
لم تينع زغاريد الدهشة والجوع في رواسب ذاكرتي
ولم افجع حتى في ذكورتي وفي صلبي

كنت اموج على تسابيح العشق
وأعد النجوم على تضاريس بطني
كنت احلم بالماء
وبصهيل الخضرة في حقولي
كنت أحلم بالفرح
بتباشير الفجر
بغفوة الغزال على رطوبة رمال الصحراء
وكنت أحلم أيضا باللقاءات الليلية
بالألحان الدفق
وبالمناديل الزنجية خلف غابات الخصب
كنـت أحلـم
فقـط أحلـم
وكان حلمي زهرة برية

خرجت لي من وراء الجدار يدي
وكانت مطموسة العين
يكسوها الدم فيما بين الفخذين
فقدت ملكة الحلم
ويئست حتى من الشعر
وتمنيت أن أصبح خبزة
رصيفـــا
أو شيئا آخر كالغياب


مدينة تونس
في العصر الإسلامي
محمد الشابي

تتعرض تونس لعمليات الفتح الاولى ، لانشغال العرب بجبهات الوسط والجنوب وتوغلهم في مناطق الجزائر والمغرب من جهة ولمناعتها من جهة اخرى ، لانها كانت تعد من القلاع الدفاعية الداخلية لحماية قرطاج ، فلما قدم حسان بن النعمان ، وحاصر قرطاج التي كانت تهدد القيروان ، واحتلها عنوة بعد قطع الماء عنها سنة 78 هـ ، لكنه لم يهدمها كما يزعم المؤرخون ، لان نقودا عربية ضربت باللغة اللاتينية وجدت بها تعود الى اواخر القرن الاول الهجري تشهد بان حسان لم يمس مؤسساتها الادارية والعمرانية بسوء ، بل انه هدم اسوارها فقط لكي لا يلتجىء اليها العدو ، ثم سقطت تونس ايضا في يد العرب .

وبسقوط قرطاج بدات تبرز اهمية تونس كمدينة بحرية اذ اوحى موقعها الاستراتيجي بين البحيرة والسبخة الى القائد العربي ان يتخذها قاعدة وان يؤسس بها اول دار لصناعة السفن بشمالي افريقية الاسلامي ، وجلب لها بتاييد من الخليفة الف عائلة قبطية لانماء هذه الصناعة وهكذا قدر لهذه المدينة ان تقوم بدور فعال كقاعدة بحرية متقدمة في الدفاع عن افريقية الاسلامية لصد هجومات الاساطيل البيزنطية المتكررة ، ثم اصبحت فيما بعد تجهز الاساطيل لغزو الجزر البحرية والشواطىء الاوروبية .



وهيأها دورها هذا ان تتسع وتنمو شيئا فشيئا حتى اصبحت مدينة مزدهرة قدر الرحالة مساحتها بحوالي 24 الف ذراع (حوالي 11 كلم مربــع) واستوطنها الى جانب البربر وبقايا الروم كثير من القبائل الحضرية العربية الشديدة المراس ، التي كانت تكون الجند المحارب وجزءا من سكان المدينة في نفس الوقت ، وكان الامراء يرهبون هذه القبائل التي كانت قليلة الطاعة لهم ، كثيرة المشاركة في الفتن والثورات دائمة التأييد للعصاة والخارجين عن الدولة فقد ايدت عبد الواحد الفزاري سنة 124 هـ الثائر الخارجي وسلمت عليه في تونس بالخلافة ، وايدت عبد الرحمن بن حبيب الذي اراد الاستقلال بافريقية سنة 126 هـ ، واقتطاعهـا عن اراضي الخلافة .

اما من الناحية الحضارية فقد استفادت المدينة من الحضارة العربية المزدهرة في تلك الوقت في جميع الميادين الصناعية والزراعية والفنون والعلـوم ، وتخرج من جامع الزيتونة الذي بناه عبيد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ ،والذي يعد من أقـدم الجامعات العلمية في العالم الاسلامي ، جلة من العلماء الكبار والشعراء ورجـال الديـن كذلك اشتهرت فيها صناعات عديدة كصناعة الحرير ، والخزف الذي كان يسمى الريحية ، واصبح ينافس خزف العراق ، مقر الخلافة ، بل يفوته جودة ورقة اذ كانوا يصنعونه من « طين ابيض حتى اننا نستطيع ان نرى منه الضوء » .

اما عمارتها فيكفي ان الرحالـة يذكرون ان فحص مرناق وحده كانت به حوالي 360 قرية في مزارع شاسعة وبساتين عامرة ، واشتهـرت بهـا عدة منجزات زراعية هامة كانت تصدر الى الخارج لجودتها .

قدمت تونس في العصر الاغلبي (184 — 0296/800 — 909 م) كثيرا من رجالها شاركت بهم في فتوحات صقلية (236 هـ/852 م) واصبحت في هذا العصر من المدن المهمة اذ حصنها الاغالبة ووسعوها بان بنوا بها عدة رباطات ، للدفاع وبنوا القصبة في غربيها ، واحاطوها بسور به خمسة ابواب : باب الجزيرة نسبة الى جزيرة شريك ، ومنه يخرج الى القيروان ، وبـاب قرطاجنـة بشرقيهـا ، وبـاب السقائين في الشمال ، وباب ارطة غربيها ، وباب البحر واحاطوا السور بخندق (1) ، وقد احدث بها الاغالبة كثيرا من القصور منها قصر قبلي الميناء مبني بالحجارة متقن البناء ومدوا الى شماله سورا لحماية السفن ، وسموه قصر السلسلة ، لانهم ربطوا سلسلة حديد بين حائطه والسور المقابل لي تغلق خوفا من الطوارىء والمفاجئات ، وبقبلي القصر صهريجان كان بنوا الاغلب يتسلون الماء فيهما من البحر ويملؤونهما بالسمك ، وشيدوا قصرا آخر بجبل التوبة (جبل سيدي ابي الحسـن الآن) وبشرقي هذا القصر يقع الغار الذي تعبد فيه ابو الحسن الشاذلي فيما بعد ، كما بنوا قصرا آخر في مكان يسمى الملعب غربي جبل التوبة ، وقد غرسوه بانواع من الثمار واصناف الرياحين ، كذلك بنوا قصرا وزرعوا بساتين بها اصناف الثمار خارج باب السقايين .

ولكن اهم معلم بقي من هذا العصر هو جامع الزيتونة الذي اسسه عبيد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ كما قلنا سابقا ، والذي اعيد بناؤه باكمله او وسع فيه بزيادات هامة في هذا العصر ، حتى طبع بطابعه واسلوبه ، خاصة في مدة حكم ابي ابراهيم احد (863 — 856) · 240 — 248 هـ .

ككل المساجد الاسلامية كان موضع جامـع الزيتونة في وسط المدينة ، وهو يشبه جامع القيروان الا انه يبدو ابسط منه في بعض اجزائه ، تتالف بيت الصلاة من 15 بلاطة ـ تتجه الى العمق ، و 7 اروقة توازي جدار القبلة وتتركز اقواسه التي بنيت على شكل نعال الفرس على اعمدة جلبت من معابد قديمة وتمتاز البلاطة التي في الوسط باتساعها وعلوها اكثر من الاخريات وتلتقي عند المحراب بالرواق الموازي لجدار القبلة والذي هو ايضا اوسع واعلى من اروقة اخرى . تحمل هذه البلاطة الرئيسية قبتين عاليتين كما في جامع القيروان تقع الاولى في بدايتها ، والثانية فوق المحراب في نهايتها ، وتحمل كل من القبتين زخارف بديعة . وتعود القبة التي فوق المحراب الى سنة 250 هـ 864 ويحيط بقاعدتها شريط كتابي كتب في هذه السنة بامر من خليفة بغداد ، على يدي مولاه فتح ، والغريب ان الكتابة لا تذكر الامير الاغلبي اما القبة الاخرى فهي احدث م الاولى بمائة وعشرين سنة .

ويعادل الصحن مساحة بيت الصلاة ، وهـو محاط من جميع جهاته بمجنبات ، وبه اربعة ابواب اثنان بالجهة الجنوبية الغربية يقعـان في سوق القماش الآن ، وواحد في سوق العطارين يعود الى عهد بني خراسان (نهاية القرن الخامس والنصف

الاول من القرن السادس هـ) وواحد يقع في صحن الجنائز وقد اضيف هذا الباب وصحن الجنائز في العصر الحفصي ، عوضا عن السلم الذي كان يقود الى الصحن وبيت الصلاة مباشرة ، والتي يذكرها البكري في وصفه للجامع اذ يقول : وجامع مدينة تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواريه ويرقى اليه من جهة الشرق باثني عشرة درجة .

اما المنارة فقد بنيت في سنة 1894 م وقد اشرف على تشييدها مهندسان تونسيان هما : طاهر بن صابر ، وسليمان النيقرو ، وهي برج ضخم مربع الشكل استعار شكله العام وزخارفه التي تكسوه من الفن الاسباني المغربي ، كذلك ادخلت على زخارف بيت الصلاة تجديدات كثيرة ، عدى القبتين فقد حافظتا على زخارفهما القديمة ، ولما كان جامع الزيتونة يقوم بدورين : ديني وتثقيفي فقد كانت العناية به اهم من جامع القيروان ، لذلك نجد به زخارف واساليب جميع العصور .

يشيد الرحالة الذين زاروا تونس ، باهمية مداخلها ، ورخاءها الاقتصادي واكتمال نظافتها ومارتها فيذكرون ان بها اسواقا كثيرة ، ومتاجر عجيبة ، وبها خمسة عشر حماما ، وفنادق كثيرة رفيعة ، وعضادات ابوابها كلها من الرخام البديع لوحان قائمان ولوح معترض عليهما مكان العتبة ثم يضيفون انها كانت دار علم وفقه ولي منها قضاء افريقية جماعة كثيرة ، ولا ننسى ان علي بن زياد كان من أجل رجالها ، وانه كان من مشائخ سحنون .

اما المزارع فقد كانت تمتد في جهاتها الشمالية والغربية الامر الذي دعا البكري ايضا ان يصفها بانها اشرف مدائن افريقية ، واطيبها ثمرة ، وانفسها فاكهة ، فمن ذلك ، الوز ، والرمان ، والاترج ، والتين ، والسفرجل ، والعناب ، وبها اصناف من السمك على عدد شهور السنة في كل شهر صنف ، وكانوا يصبرونه فيبقى السنين الطويلة صحيح الجرم طيب الطعم .

وقد انفجرت من تونس اعظم ثورة في العصر الاغلبي هي ثورة منصور الطنبذي الذي هدد الامارة الاغلبية في عهد زياد الله الاول بالانهيار ، وضرب النقود باسمه فلما انتصر عليه زياد الله واخمد الثورة هدم سورها وادام مراقبتها لكنها لم تهدا فقد قادت ايضا ثورة ثانية ضد ابراهيم الثاني الاغلبي فقمعها بشدة اثارت خليفة بغداد نفسه فانكر عليه تعذيبه لسكان تونس في رسالة شهيرة ولكن ابراهيم لم يلتفت اليه ، ولما لم تجنح المدينة الى الهدوء فكر ابراهيم ان يستوطنها وفعلا انتقل اليها من رقادة وبقي بها عامين (280 — 282 هـ) ثم عاد الى العاصمة الاولى ، لما استفحلت دعوة الشيعي .

حينما انتصر الفاطميون على الاغالبة حاصر اسطول اندلسي بامر الخليفة عبد الرحمن الناصر مدينة تونس ثم رفع الحصار بدون ان يتمكن من الدخول اليها او اخضاعها وهي وان اسلمت قيادتها نوعا ما للاغالبة ، فانها لم تخضع للفاطميين الذين حكموا افريقية ابتداء من نهاية القرن الثالث ، وجلبوا معهم مذهبا جديدا سياسيا دينيا يتعارض مع المذهب السني ورغم ان القيروان قبلت المذهب الشيعي بغير حماس ، فان تونس بقيت مخلصة الى المذهب المالكي ، مستترة في ذلك وراء جلة علماء هذا المذهب ، الذين لعبوا دورا مهما في تركيز المالكية بها والذين بلغت سيطرتهم على سكانها انهم لم يقتصروا على التوجيه الديني والسياسي فقط بل تعدوه الى التوجيه العمراني اذ نرى بعضا منهم يامر التونسيين ببناء سور مدينتهم وبعضهم الاخر يتدخل في توجيه توسع المدينة نحو الشمال ، كما فعل سيدي محرز الذي احتط زاويته في جهة باب سويقة مما يبدو ان كل هذه المنطقة مدينة لهذه الزاوية بتنظيمها العمراني والاقتصادي ، وما بناء السوق المسمى باسمه الا دليل على ذلك ، كذلك هو الذي امر باسكان اليهود في الحارة الواقعة بالجنوب الشرقي من زاويته .

وقد هددت تونس اقتصاديا ابان ثورة صاحب الحمار على الفاطميين في النصف الاول من القرن الرابع ، لكنها سرعان ما استعادت ازدهارها بعد سقوط الثائر ، يشهد بذلك الرحالة الذين زاروها في هذا العهد ودام هذا الازدهار طوال العهد الصنهاجي .

فلما كانت سنة 440 هـ ، حينما اعلن المعز بن باديس الصنهاجي استقلاله عن الفاطميين في مصر ، وهاجمت جيوش الاعراب من بني هلال وبني سليم افريقية لم تسلم تونس من النهب والخراب ، ولم تعد كما كانت قبل خمسين سنة موطنا للثروة والازدهار .

فعند انهيار القوة الزيرية ، ارسل سكان مدينة تونس الى حكام قلعة بني حماد بالجزائر ،

يستنجدون بهم ، من جور قبائل الاعراب التي استوطنت المدينة فارسل الحماديون حاكما من قبلهم لحكم المدينة يسمى ابن خراسان ، الذي استطاع ان يطرد منها الاعراب بمهارة فائقة ، وان يؤمن سكانها ، ويحفظ لها ما بقي من ثروتها ثم استقل بها عن نفوذ الحماديين واسس عائلة تسمى : عائلة الخراسانيين ، وهكذا اصبحت عاصمة تونس عاصمة لمملكة صغيرة لاول مرة في بداية القرن الخامس ، وقد ساعدها انتشار هذا النوع من الدويلات ، الصغيرة في اغلب مدن افريقية على الازدهار والدوام مدة طويلة .

وقد عملت هذه العائلة التي حكمت حوالي منتصف القرن السادس على تخليص المدينة من كل تهديد اجنبي والمحافظة على ثرواتها ، وعلى توسعها العمراني ، فقد بنوا لهم قصرا بعيدا عن البحيرة فوق الهضبة الى الجنوب الغربي من جامع الزيتونة ليس بعيدا عب نهج بني خرسان الآن ، ولا يزال جامعهم المعروف بجامع القصر الى الآن يحمل طابعهم المعماري وغير بعيد منه توجد مقبرتهم التي كشفت لنا عن كثير من القبريات الجميلة والتي تعود الى نهاية القرن الخامس والنصف الاول من القرن السادس . ويصف الادريسي المدينة في نهاية دولة بني خرسان ، بان اسواقها كانت ملأى بجميع السلع خاصة المواد الغذائية كالقموح والعسل والزبدة وبفضل ذلك كان خبز تونس وحلواها من النوع الممتاز .

ولم تستطع هذه الدولة الصغيرة ان تقاوم نفوذ القوة المتصاعدة للموحدين الذين قضوا على دولة المرابطين في المغرب الاقصى واكتسحت جيوشهم في سرعة كبيرة الاراضي الجزائرية ، ثم لبث استنجاد التونسيين بهم لتخليصهم من سيطرة النورمانديين الذين استولوا على بعض مدن الساحل ولوضع حد للفوضى السياسية التي اصبحت تتخبط فيها فانقضت على الخراسانيين ، وبعد حصار مضيق احتلت المدينة سنة 554 هـ — 1158 م وبذلك اصبحت تونس ولاية تابعة للمغرب ، يشرف عليها وال من قبلهم ، ثم جهز الموحدون منها اسطولا قضى على السيطرة النورماندية في المهدية سنة 555 هـ — سنة 1159 م .

وبعد حوالي خمسين سنه من التبعية للموحدين ، مرت مليئة بالاحداث السياسية والفوضى ، والاضطرابات ، استقل بها الامير الموحدي عبد الواحد بن ابي حفص سنة 603 هـ — سنة 1207 م مغتنما فرصة ضعف الموحدين ، وبعد المسافة بين مراكش وتونس وبهذه الحركة الاستقلالية تكونت الدولة الحفصية واتخذت تونس عاصمة لها وافتكت من القيروان قيادة البلاد ، وبعد ما كانت عاصمة لمدينة في عهد الخراسانيين اصبحت عاصمة لمملكة كبيرة ، تجاوزت حدود افريقية الاغلبية والفاطمية ، واشرفت لاول مرة على الحدود التي ستجعل منها تونس المستقبل التي بقيت الى الآن على حد قول احد المؤرخين ، وبعد فترة قصيرة انقلبت الاوضاع ، فقد تدعمت الدولة الحفصية واشتدت شوكتها حتى امتد نفوذها الى المغرب اذ ورثت مملكة الموحدين ، وقضت على دولة بني مرين بتلمسان ، واصبحت قوية منيعة الى درجة ان الاندلسيين استنجدوا بالخليفة المستنصر ، ليساعدهم في حربهم الدائرة ضد الاسبان ، فانجدهم باسطول لم يقدر له الوصول ، وبلغ الامر بهذا الخليفة ان جاءته بيعة امير مكة وتسميته خليفة على المسلمين ، اذ لم يتوسم امير البقاع المقدسة في غيره من حكام المسلمين من يستحق لقب الخلافة .

وازدهرت فيها العلوم ، والآداب والفنون والصناعة والتجارة ازدهارا كبيرا حتى انها كانت تصدر : القموح والزيوت ، والغلال وخاصة التين ، والشمع ، والعسل ،وكذلك العاج ، والمرجان ، ومسحوق الذهب ، والصوف والجلود والزرابي والاقمشة الرفيعة وغير ذلك .

وتستورد من عدة اقطار : الذهب والفضة ، لضرب النقود ، والمراكب والاقمشة الحريرية والكتانية والعقاقير ، والالآت الحديدية وغيرها .

وقعت في هذه الفترة الهجرة الاولى لمسلمي الاندلس بعد توالي سقوط مدنهم في يد الاسبان سنة 634 ه ، 1236 م واستقر اغلب المهاجرين بمدينة تونس وضواحيها حيث اسسوا حارات عرفت باسمهم ، وقدموا لها المع الشخصيات العلمية ، والصناعية والفنية .

واما العلاقات بين الدولة الحفصية والدول الاوروبية فقد كانت متينة جدا ، خاصة مع الجمهوريات الايطالية ، بيزا وجنوا ، وفينيزيا ، ونشطت الحركة التجارية وتبادل السلع والتجار ،

نشاطا كبيرا ، واستقر كثير من التجار الايطاليين بمدينة تونس وسمح لهم الخليفة الحفصي بتعاطي التجارة وتاسيس الفنادق والكنائس وكانت أم أحد الخلفاء الحفصيين مسيحية تدعى (مامرية) وتتعاطى طقوس دينها بكل حرية بل كانت تستدعي اهلها لزيارتها ، وقد تقدم أخواله لتهنئته عند توليه الحكم فأنزلهم بمكان قرب القصبة فيسمى بهم (حومة العلوج) وبقي الى الان باب العلوج . كذلك كان بها كثير من رجال الدين ، والرعايا المسيحيين ، الذين كانوا يمارسون مهنهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وأمن ، بل ان الامر تعدى كل ذلك فقد استخدم الحفصيون كثيرا من الفرسان ، والجنود المسيحيين ضمن جيوشهم نعلم منهم الترسكان والالمان ، والاسبان ويظهر ان هؤلاء هم الذين زودوا لويس التاسع بمعلومات عن تونس ، وهم الذين شجعوه على القيام بحملته ضدها تلك الحملة التي باءت بالفشل سنة 668 هـ/1270 م وادت الى موت لويس نفسه بالطاعون في قرطاج كذلك تدخلت فرنسا الى جانب الجنويين سنة 730 هـ/1390 م في الحرب التي دارت بينهم وبين التونسيين فارسل الملك الفرنسي شارل السادس اسطولا بقيادة خاله دوق بوربون فحاصر تونس لكنها استعصت عليه مناعتها ، وبعد مناورات خفيفة انسحب الاسطول الفرنسي دون نتيجة ، وكما بنى الخرسانيون قصرهم . بنى بها الحفصيون القصبة او رمموها من اساسها ، وهي تشرف على المدينة في اعلى مكان بها واتخذوها مسكنا لهم ولحرسهم ومقرا لحكمهم ولمصالحهم الادارية والحقوا بها جامع القصبة .

الحالي ، الذي تحمل منارته كتابة مرمرية تنص على ان بانيه هو أبو زكريا الحفصي وتاريخ البناء 630 هـ 1233 م .

وقد بنيت بيت الصلاة في هذا الجامع بطريقة العقود المتجاوزة تفصلها اقواس على شكل نعال الفرس ترتكز على اعمدة رخامية جلبت من مدينة (منزل باشو) التي كانت عاصمة اقليم الجزيرة (الوطن القبلي) زمن الاغالبة .

يدل طراز بناء المنارة انه مستورد من المغرب ، فعدى بعض الرتوش التي غيرت شكل جامورها يشهد هذا البرج الصلب بزخارفه المتألفة من دلايات وسط معينات بأصله المغربي الموحدى وتذكرنا منارة القصبة بتونس في هيكلها وزخارفها بمنارة القصبة بمراكش التي بنيت قبلها بخمسين سنة تقريبا .

ويعود الى هذا العصر التخطيط الحالي ، للمدينة فقد اسسوا بعض اسواقها كسوق العطارين الذي بلغت عدد دكاكينه في عهد ازدهار الدولة حوالي 700 ، كذلك انشاؤا كثيرا من المدارس والمساجد ، ودورا للكتب بالقصبة التي بلغ عدد مجلداتها حوالي 36 الف كتاب ، واخرى بجامع الزيتونة ، كذلك يعود الى هذا العصر المرستان الذي شيد لايواء المرضى والعجز والمعروف (بالتكية) الذي يقع بين شارع باب البنات ونهج دار الجلد الآن كما ازدهرت العلوم في هذا العصر ازدهارا كبيرا ، وانجبت تونس عددا وافرا من علماء جامع الزيتونة الذين كانوا يتولون تدريس الطلبة بهذا المعهد الى جانب توليهم المناصب الهامة في الدولة ويمكن ان نعد منهم ابن خلدون المفكر الذي طبقت شهرته الآفاق .

منذ القرن السابع ، أصبح توسع المدينة كما تشاهده الآن فقد امتدت من باب سويقة الى باب الجديد ، ومن باب البحر الى القصبة وكان يحيط بها سور من الطوب دعم اثر الحرب الصليبية الثامنة التي وقع الهجوم فيها على تونس ، ويعود الباب الجديد الى زمن المستنصر الحفصي .

كما بني باب المنارة في نفس العصر من غير شك ، غير ان مخططه ابسط من باب الجديد وتعد واجهته الخارجية التي تشكل نعل فرس ومواد بنائه المتألف من حجارة منحوتة نحتا ضعيفا ، مكونة اشرطة مرمرية ضيقة امثلة جميلة للعمارة التونسية ، وهو يشهد بذوق متقشف ولكنه ممتاز . كما يوجد شاهد ثالث يستحسن ذكره لكنه مع الاسف لم يبق منه الا الاسم لكن هذا الاسم يحمل صفحة مشرقة للحياة الاسلامية ويضيء بعض المنزلات التاريخية للسمو الذي يتحلى به الحفصيون وهو القصر الذي شيد في باب البنات الذي يقع في مكان ما على الشارع الذي يحمل اسمه ، وسمي بهذا الاسم لان ثلاث بنات تركن من طرف آخر امراء بني غالية اولئك المغامرين الذين اغرقوا تونس في بحر من الدماء واللهب ، حوالي اربعين عاما ، نزلن على ابي زكريا الحفصي الذي قضى على مجد عائلتهن ، فانزلهن في غير بعيد عن القصبة واكرم وفادتهن ، وعاملهن معاملة بنات الامراء ، كما يشهد احد المؤرخين الاجانب على هذه المعاملة بقوله ليس هذا المثال الوحيد في الاسلام ،

الذي يمكن ذكره في معمالة الامـراء المسلمـين لاسراهم ، او لأهالي اعدائهم .

وحتم مجيء أهل الريف الى المدينة تكوين مناطق سكنية خارج الاسوار ، فتأسست احياء بأكملها لكن بناءاتها اقل جمالا من بنـاءات المدينـة ، وشوارعها اوسع وقد تحولت ملتقياتها مع مرور الزمن الى اسواق دائمة او وقتية لحاجات الفلاحين القادمين الى المدينة لمستشرياتهم ، وقد حفظت لنا بعض اسماء هذه الاسواق مثل : رحبة الغنم قرب باب الجزيرة ، وغير بعيد عنها قرب باب سيدي قاسم سوق الخيل ، كذلك سوق القمح ، اما من الجهة الشمالية فنجد قرب باب سويقة ، سوق الحلفاوين يبيع الفلاحون فيه الحلفاء لصناعـة الحصر وسوق القلالين ، حيث يوجـد صانعـوا الفخار ، ووضعت الصناعات المختلفة داخل المدينة ايضا قرب الابواب لحاجيات أهل الريف الوافدين على المدينة مثل : الحدادين قرب باب الجديـد والصباغين قرب باب الجزيرة والسراجين قرب باب المنارة وسوق سيدي عبد السلام قرب باب سويقة .

منذ بداية القرن السادس عشر بدأ الاتصال بين تونس وقرى القراصنة الاتراك الذيـن يعرفـون بالاخوان باربا روس اللذان طلبا في سنة 1505 م من الحسن الحفصي تسليمهما جزيرة جربة ليجعلا منها حصنا يحتميان به ، وبذلك بدأ الصراع التركي الاسباني للتدخل في شؤون تونس ، وبعد معارك عنيفة دامت حوالي ثلاثين سنة تخللتها تدخلات من الاسبان الذين استنجد بهم الحسـن الحفصي ، حاول فيها شارلكان الانتقام من خير الدين باربارس الذي هزمه في ايطاليا فجهز اسطولا يتألف من 400 مركب ، و 25000 رجل ، استطاع بواسطتهم ان يطرد الاتراك ويعيد الحسـن الحفصي الى عرش تونس ، مقابل حامية اسبانية تمركزت في قلعة حلق الوادي الى ان طردهم داي الجازئر التركي سنة 1574 ، ولكن هذا الصراع لم ينته الى ان قدم سنان باشا على راس اسطول تركي ، فدمر اسطول حاكم حلق الوادي وقبض عليه وقاده اسيرا الى تركيا ، ولكنه توفي في الطريق ، وفي اثناء احتلالهم لتونس اسس الاسبان قلعتي حلق الوادي ، والباستيون ، خارج باب البحر من اسوار تونس اين توجد السفارة الفرنسية الآن .

تقرر بهذه المعركة مصير تونس اذ اصبحت ولاية تابعة لتركيا يحكمها باشا ، ثم داي وباي لجباية الاموال وشبه برلمان يتالف من بعض اعيان البلاد ومن قواد الانكشارية وكان في استطاعة الحكومة تعبئة 40 الف رجل و 12 مركبا في حالة الطوارىء ، وكان بها حوالي 12 الف اسير مسيحي ، وازدهرت التجارة والثقافة حتى ان عدد المدارس اصبح يفوق المائة ، وتفتحت البلاد الى ربط علاقات مع الدول الاجنبية فقد وقعت اتفاقيات تجارية بين باي تونس والمرشال ديستري من فرنسا عام 1685 ومع انقلترا في نفس التاريخ ، وبعد سنوات قليلة مع هولاندة ، ثم مع بقية الاقطار الاوروبية .

وقع في بداية العهد التركي اجلاء الاندلسيين نهائيا بعد ما بقوا تحت الحكم الاسباني اثر سقوط غرناطة آخر مدينة للمسلمين بالاندلس عام 1492 على يد فردناند الكاثوليكي ، فاستقر اغلبهم في مدينة تونس واسسوا بها اسواقا وحارات عرفت باسمهم مثل حومة الاندلس ، وزقـاق الانـدلس ، كذلك اسسوا اسواقا لصناعاتهم التي جلبوها معهـم كصناعة الشاشية ، والحرير ، ونقش الرخام ، والزليج .

بالاضافة الى ازدهار المدينـة في هذا العهـد اقتصاديا وعمرانيا فقد انتشرت الثقافة بتأسيس المدارس ، للطلبة ، والمساجد للدرس والصلاة ، كمسجد يوسف داي ، وجامـع حمـودة باشـا وغيرها ، كذلك يعود اليه انشاء بقية الاسواق مثل سوق الترك والبركة وكانـت سوقـا للرقيـق ، والمبشاقية ، والجرابة وكذلك انشاء المستشفيات كمستشفى عزيزة عثمانة الذي يعرف بالمستشفى الصادقي الآن ، ومرستان المرضى بحومة العزّافين الذي انشأه حمودة باشا المرادي .

لكن الناحية السياسية بقيت تمتاز بالحروب خاصة بين الجزائر وتونس حتى انتخب الجيش حسين بن علي احد قواد ابراهيم الشريف ، الذي انهزم امام الجزائريين في الكاف على راس الدولة وبه بدأت الدولة الحسينية عام 1705 .

كان عهده عهد سلام ورخاء ، وقد اعاد وراثية الحكم يتولاه اكبر الابناء في العائلة ووقعت حروب ضارية بينه وبين ابن اخيه وولي عهده الباشا علي ، لانه عهد اليه بولاية العهد لما لم يكن له ابناء ، فلما

انجب ابناء من امراة جنوبية نزعها عنه ، وانتهت بموت حسين بالقيروان واستيلاء ابن اخيه علي 1740 لكن ابناء حسين لم يسكتوا فاستنجدوا بباي قسنطينة فاعدهم بجيش كثيف ، استطاعوا به قتل علي ، والاستلاء على الحكم سنة 1756 وقد استمر فيهم الى ان سقطت العائلة المالكة في 25 جويلية 1957 .

كانت علاقات تونس مع اوروبا ودية رغم ما يسودها احيانا من اضطراب او استعداد للحرب ولكن سرعان ما تنقشع السحب مثلما وقع في سنة 1770 اذ تطورت الوضعية بين فرنسا وتونس الى حالة استعداد للحرب ، بسبب جزيرة كورسيكا ، اذ ان فرنسا اشترت الجزيرة ، فارادت من تونس ان تسلمها ما في حوزها من اسرى ومراكب كورسيكية ولكن سرعان ما عاد الصفاء بين البلدين بعد اتفاقيات وقعت . ورغم التوتر الذي ساد العلاقات فان الشعب لم يمس محلات الفرنسيين التجارية بسوء ، بل ان الباي عين عليهما حراسا لكي لا يعبث بها وتطور الامر الى ارسال السفارات بين البلدين ، وتبادل الهدايا بين الباي وملك فرنسا واصبح لقنصل فرنسا في عهد حمودة باشا امتياز على كل القناصل الاوروبيين ، وكان له حق حماية كل المسيحيين الذين يقدمون الى تونس ، ولكن لم يكن لهذه الحماية اهمية تذكر احيانا لان المسيحيين كانوا تحت حماية الباي بنفسه وكانوا يتمتعون بحظ وافر من الحرية .

ووقعت تونس في القرن الثامن عشر عدة معاهدات مع كثير من البلدان الاوربية مثل : فرنسا ، انقلترا ، هولندة ، السويد ، الدانمارك ، اسبانيا ، وغيرها ...

وبفضل هذه المعاهدات ، والاتصالات وقعت تحويرات حضارية عميقة ، سواء من الناحية الاجتماعية ، او السياسية ، فقد تفتحت المدينة ، التي كانت تعد انذاك حوالي 150 الف ساكن بينهم حوالي 30 ألف يهودي ، على الثقافات الاجنبية فاخذت تشيد المدارس العصرية واصلاح التعليم ، والعناية بالمكتبات واخذت الروح والتقاليد الكلاسيكية القديمة تنمحي شيئا فشيئا سواء في سلوك الناس او في انواقهم وحتى في الناحية العمرانية اذ بدات تختفي مظاهر المدينة لتحل محلها مدن عصرية ، تعتمد العمارة الحديثة ، والتأثر بالاساليب العلمية خاصة بعد انشاء المجلس البلدي سنة 1958 ومن اسمى مظاهر هذا التفتح الانساني ، حرجة تحرير العبيد سنة 1837 ، وتحريم ملك الانسان للانسان ، كذلك التصريح بحرية المعتقدات الدينية ، وتمخض كل هذا التدرج الحضاري الى صدور « وثيقة عهد الامان » في 10 سبتمبر 1857 وهي دستور ينظم علاقات الناس وسلوكهم قانونيا بعد ان كانت هذه العلاقات دينية محضة ، ولكن الاحتلال الفرنسي لتونس في 12 ماي 1881 قضى على هذا التطور وأغلق هذا التفتح ، فانغمست تونس مرة اخرى في تيار الجهالة .

ولم يشمل ذلك التطور الناحية الثقافية او الحضارية فقط بل شمل الجيش كذلك فقد احدثت له احدث المدارس وجلب له الخبراء ليعلموه الاساليب العصرية ليكن في مستوى الجيوش الاوروبية منذ سنة 1824 .

اما من الناحية العمرانية فتعود الى هذا العهد الكثير من المنشآت الحالية مثل جامع حمودة باشا ، وجامع يوسف صاحب الطابع ، وقصور باردو ، وآثار المحمدية كذلك قصور المرسى ، ويتسم الطابع المعماري لهذه الفترة بترك الاساليب الكلاسيكية واعتماد الاساليب الفنية الحديثة المتاثرة كثيرا بفن العماخ لاوروبي .

— محمد الشابي —

• 1 — الذي بقيت الاشارة اليه فيما يسمى الآن بنهج الجفير .

تعتذر مجلة « الحياة الثقافية » لدى قرائها الكرام عن التاخر الذي طرأ على ظهورها لأسباب مطبعية بحتة وقعت الاشارة اليها بافتتاحية هذا العدد .



في غابة الحضارة الانيقة ...
اسائل الشوارع الدخان ...
اسائل (النيون) عن ضياه في الزمان
عن ضياه في المكان ...؟

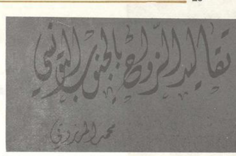
رايــت في طريقــي
مغـــازة عميقــة
وجدت عابثين او هواة
سألتهم فمن رأى .
ظننــت انهــم همــو
ومثلمــا أسائــل
تســـائلــوا وقـــالــوا :
اباحثــا عــن القمــر ...
فمن زماننا استتر ؟
فمن زماننا ... لانه
لانـــه انتحـــر

وسرت في أزقة المدينة ...
رأيـــــت .
هـــا رأيتهـــا
مصانع الدمى . دخلت في حذر

سمعـت مـن يـردد :
مـزاوده ...
مـزاوده ؟
فقلـت هـل رأيتمـو
رأيتـم المكـابـدة ؟
فصاحـت الدمـى معـا :
مـزاودة
مـزاودة

فقلت هل رأيتم صفاءه
وصاحت الدمى صفاء من .. أيـا ... ؟
أمـا قـرأت أي لافتـة
ليمنع الدخول ... يسمح الخروج ؟
لحلبـة المصـارعـة
صمدت دونما تردد همست هل لمحتم ...؟
تـراكضـوا الـي
ويصرخون يصرخون حاملين كومة من ..
الفواكـه المدنسـه ؟
ويحملون ألـف ... ألـف مقصلـه
تصارخوا أتسائل الجموع من رأى القمر ...
لأنـت أرنـب يـدور
انـت ثعلـب خطيـر
أنـت أنـت سـارق القمـر ؟
تـدافعـوا لمصرعـي
فخنجر يقوم ، خنجر يثب
وسالت الدماء ـ سالت الدما ...؟

مصطفى احمد النجار
سوريـا ـ حلـب



إن حديثنا عن تقاليد الزواج بالبادية التونسية يخص فترة ما قبل الحرب العالمية الاخيرة اذ ان هذه الحرب كان لها اثر ظاهر في تحويل البوادي من حياة التبدي والتنقل الى حياة الاستقرار في القرى او الانحياز الى المدن الكبرى طلبا للعيش .

فالبادية التي كانت تزخر بقطعان الماشية وبالحقول الزراعية انتهت حياتها الاولى واستقبل اهلها حياة ثانية بحكم يقظة الشعب وتنبهه الى ان الحياة الحاضرة تتطلب التعليم والاستقرار والتطور مع العصر . وهكذا اقبل البدو على المدن واقبل ابناؤهم على التعليم اقبالا جماعيا وحتى الذين بقوا باماكنهم وجدوا من الحكومة الوطنية في عهد الاستقلال اهتماما بشؤونهم فساعدتهم على تطوير زراعتهم وعلى تاسيس قرى جديدة منظمة حسب القواعد الصحية وفجرت لهم المياه ، واقامت السدود وبنت المدارس الخ ... وهكذا سوى عهد الاستقلال بين افراد الشعب ومكن الجميع من العيش الكريم .

وهذه الحياة المستقرة ادخلت تطورا جديدا على التقاليد القديمة فاهمل اولائك البدو القدامى بعض التقاليد التي لا تتماشى مع حياتهم الحاضرة المبنية على الاختصار والاقتصار على اللازم والالـزم ، وتطور بعضها تطورا حوفظ فيه على الاصل ، وبقي من التقاليد بعض ما لا حرج في بقائه وسوف ننبه فيما ياتي على نماذج من هذه الاقسام الثلاثة .

ولا يفوتنا ان ننبه الى ان تقاليد الزواج بالبادية التونسية تتقارب او تتشابه تقاربا وتشابها كبيرا وليس بينها تخالف الا في بعض الجزئيات الصغيرة التي تكسبها اللون المحلي ، فاصول التقاليد في الشمال والجنوب والغرب والشرق من الجمهورية التونسية ، واحـدة ، وعلى الاخص في الجهـات الغربية والجنوبية حيث تنتشر قبائل سليم وبقايا قليلة من هلال الذين وفدوا على تونس حوالي منتصف القرن الخامس الهجري ، واستقروا في تلك الجهات وتغلبوا على اهلها فتعربوا واندمجوا في حياتهم واعتنقوا عاداتهم وتقاليدهم .

وقد نجد جذور هذه التقاليد ممتدة الى بادية الجزائر والمغرب مع فروع هذه القبائل التي انتشرت هناك كما نجدها في قبائل ليبيا ولا شك ان بعضها لا يزال موجودا في الصحراء الغربية من مصر وفي الصعيد المصري الموطن الاول لتلك القبائل بل ان هذه التقاليد تمتد وتتوغل في مجاهل القرون الخالية فنجد لها اصولا واشباها في الجزيرة العربية في عهد جاهليتها الاولى فقد احتفظت هذه القبائل بكثير من تقاليدها العربية القديمة في الزواج وفي غيره وبكثير من عادات وأدب مجتمعنا الاول ، فلا تخلو عاداتها وآدابها الشعبية في أصول نجدها في الكتب المؤلفة عن العرب في الجاهلية وقد اثبت نماذج من هذا في كتابي عن الادب الشعبي بتونس .

التعارف الاول

تنتشر في البادية التونسية موارد الماء من آبار وعيون وشرائع لا تخلو غالب الاوقات من الوارد والصادر فعلى هذه المعاطن تقع تجمعات الفرق المختلفة من نساء ورجال يأخذون زاد أهلهم من الماء وهناك يتجاذبون الاحاديث ويروون الأشعار ويتبادلون القصص والحكايات والأسئلة والأجوبة ونظرات العيون المتملية عن الوجوه والمتزودة من

الجمال المتمثل في حمرة الخدود ولين القدود ونفور النهود ولحظات العيون وهمسات الجفون فتلقى الأغاني التي تحمل في طياتها المقاصد والمعاني ويصدر الوراد وفي قلب كل شاب منهم زاد وتتوالى بعد ذلك الوسائط والرسائل فالملتقيات والاجتماعات فينجح الفرسان ويفشل الجبناء في الميدان .

وللاغاني الرمزية التي يتبادلها الشبان مع الفتيات على موارد الماء وفي التجمعات الواقعة في الاحياء البدوية شان كبير وشهرة واسعة عند سكان اقصى الجنوب التونسي بالخصوص ، وغالبا ما ياخذ البادرة الشبان فهم اشد جراة على الحديث وعلى نظم المقاصد والمعاني ، لكن بعض الفتيات لا يستجبن الى ذلك ويحتفظن بتزمتهن حتى اذا اردن التخلص من الشاب الجريء ملن الى رميه بشعر يلقمه حجرا .

خاطب احدهم يوما فتاة بقوله :

يا شابـــة شبـــو اقـــداك عيوني
بنت من ؟ واهلك وين ؟ وآش تكوني ؟

(يا جميلة لقد اسرت نظرات عيني ، فانت بنت من ؟ واين ينزل اهلك ؟ ومن تكونين ؟)

ولكن الفتاة التي ادركت ما يرمي اليه بهذا الشعر ما يتبع سؤاله هذا من اسئلة اخرى ، يقصد منها جرها الى الحديث معه ـ ارادت ان تتخلص من هذا الجريء الوقح ، فاجابته رادة عليه سؤاله :

ولـد من ؟ واهلك ويـن ؟ وانـت من هو ؟
انت جحش ، والا حمـار والا آشـن هو ؟

ـ (ولد من انت ؟ واين ينزل اهلك ؟ بل من انت من الرجال ؟ هل انت جحش ؟ او حمار كبير ؟ او اي شيء انت ؟)

فانقطع عن الحديث معها .

اما التي اعجبت بالشاب وارادت ان يتمادى في الحديث معها فانها ترد عليه بما يشفي غليله .

تعرف احد الشبان على فتاة ولم يجد فرصة للاجتماع بها فغنى وهي تسمع ؟

صيـاد تبـع ريـم جافـل نافر
بالنــدرا يجعلش والا خاسر

فهو يتساءل هل ان هذا الصياد الذي يتبع غزالا نافرا سيظفر به او يفشل ؟ فغنته الفتاة :

ريـم العواطـر في نهـاره شارد
مجروح يحصل في الظلام البارد

ان الغزال الذي تتبعه ايها الصائد ، والذي يقضي النهار شاردا نافرا ، ان هذا الغزال جريح لا يمكن اقتناصه الا في الليل حين يبرد جرحه فيشتد وجعه انها تقول له ان الاجتماع لا يمكن الا ليلا .

فغنى محددا لها مكان الموعد :

عندما ينام الحي ، وتكف حركتهم ، (المارق هو المار) يروح الى شجرات السدر النامية وسط مجرى الوادي (السارق هو مجرى الوادي المنخفض)

هذه نماذج من الاشعار المتبادلة بين الفتيان والفتيات والتي تقال عادة ارتجالا .

والى جانب موارد المياه ، الاجتماعات التي تقع في الاحتفالات في مناسبات الاعياد والأعراس فان كان التعارف أقل حرية وانطلاقا ، مما يقع على المياه أو بسبب مجاورة الاطناب وتقارب الأعتاب وتقابل الأبواب .

على أن هذا التعارف بين الفتى والفتاة لا يكون الا في غفلة من الأهل والأقارب ، فالعيون مفتحة والحراسة شديدة وعقوبة من يسوء فيها الظن الموت المحتم ، ولكن رغم هذا فاللص لا يعوزه التغلب على حيل الحارس . ولا ينتج هذا التعارف زواجا الا اذا بقي في طي الكتمان ولم يطلع عليه شيطان ولم ينتج عنه شعر يحفظه الناس فاذا وقع شيء من هذا فمآله التقاطع والحرمان وهي شنشنة متبعة من القديم ومعروفة عند العربي الصميم .

هذا بالنسبة للاجانب عن الحي ، اما الاقارب فالتعارف طبيعي والزواج يقع حسب الطرق العادية بين الاقارب وغالبا ما يبت فيه من عهد الولادة اذ لا تكاد تولد البنت حتى يصرح ابوها انها من نصيب ابن عمها ، وهذا يعتبر عهدا لا يمكن النكول عنه او الرجوع فيه ، فمجرد كلمة ينطق بها ابو الفتاة تكون دينا في عنقه لا يسعه الا اداؤه او يمسح اسمه من قائمة الرجال ويصبح مضغة في الافواه ومضرب مثل في خيانة العهد وعدم البر بالوعد ولو كان الوعد اعطي لغير قريب .

وفد احد سكان بادية ليبيا الغربية على الجنوب التونسي ونزل ضيفا على احد اصدقائه هناك وكان لليبي ولد لا يتجاوز السابعة اصطحبه في سفرته تلك ، فخرج هذا الصبي يلعب مع طفلة للمضيف فنظر ابو الفتاة الى طفل صديقه وقال يخاطبه :

– ارعها برفق واحسن اليها لعلها تكون من نصيبك يا بني .

وارتحل الليبي الى بلاده ، ليرجع الى صاحبه بعد اثنتي عشرة سنة مصحوبا بولده وبعض اقاربه يسوقون الجمال المحملة بالهدايا التي تقدم عادة للفتاة في الخطبة ، ولما ابدى ابوها دهشته من ذلك ذكره صديقه بكلمته التي خاطب بها الولد منذ اثني عشر عاما فلم يسعه الا ان وفى بوعده وسلم ابنته زوجة للضيف .

وقد لا يسبق الزواج تعارف بين الزوجين اذ ينوب الوالدان مناب ولدهما في ذلك فيختاران له حسب شهوتهما اما الولد فيعتبر قاصرا لا يملك لنفسه حرية الرفض والا اعتبر عاقا لوالديه واختيار الوالدين في الواقع هو اختيار الام ، والاب تبع لها ، اذ ان الام هي التي تختار وتوحي لزوجها بذلك وقل ان يكون الاختيار على مشيئة الاب وحده .

والخطبة في تقاليد البادية التونسية تمهد لها النساء في الغالب ، حتى اذا وقع التراضي تداخل الرجال في شانها وبواسطة الرجال يعلن عنها ، وقد يسبق الخطبة تعارف بين الخطيبين وقد لا يقع ذلك التعارف ، وتتم الخطبة الرسمية في جمع بين اقارب الخطيبين على الصورة التالية :
يقول ولي الخطيب :

– جيتك خاطب راغب في بنت الحسب والنسب بنتك (فلانه) لابني او قريبي فلان فيقول ولي الفتاة جازتك ان قبلت شرطي .
وتعاد هاتان الجملتان ثلاث مرات ثم يقول الخاطب :

– هات شرطك .
وهنا يذكر ولي الزوجة شروطه ويصرح بمبلغ المهر ، والغالب ان يكون مهر امثالها من فتيات الحي فيقول ولي الزوج :
– قبلت

واثر هذه الكلمة يقرأ المجتمعون فاتحة الكتاب وقد يحضر الاجتماع شيخان من العدول الرسميين يكتبان العقد الرسمي في دفتريهما وقد لا يحضران فيذهب لهما الوليان في ذلك اليوم او بعد ذلك بمدة ليسجلا عندهما العقد الرسمي على شرط ان يقع ذلك قبل الدخول .

وكانت بعض الاحياء البدوية لا تكترث بكتابة العقد الرسمي وانما تكتفي بشهادة الجماعة ، ولكن الظروف العصرية سنت قانونا جديدا لا يعترف بزواج الا بعقد رسمي مسجل واعلان الخطبة يفرض على الخطيب تكاليف مادية تختلف قيمتها بحسب اختلاف ظروف الخطيبين ، فقد تخف هذه التكاليف اذا كانت الزوجة قريبة او فقيرة وقد تثقل اذا كانت الزوجة غريبة من حي بعيد أو كانت ظروف الزواج المادية تتحمل الثقل .

وتتمثل هذه التكاليف في هدايا متنوعة من الأكسية والحلي ، ترفعها قريبات الزوج الى منزل الخطيبة فيقدمنها مصحوبة بالزغاريد حتى يسمع الأجوار فتخف نساؤهم الى منزلي الخطيبين للتهنئة ، وتستمر الهدايا في كل موسم من المواسم الى البناء عند بعض الأحياء ، ولكن بعض الأحياء الأخرى لا يجعل أية أهمية للهدايا الموسمية ، ولكن تبدأ الخطبة بزيارة قريبات الخطيب الى منزل الفتاة حاملات معهن قصعة من طعام الكسكسي ، فان قبلتها أمها فمعنى ذلك الموافقة وإن رفضتها فمعنى ذلك عدم الموافقة على تزويج ابنتها من الخاطب .

وهناك بعض الأحياء لا يتداخل الأولياء في اختيار الزوجة وانما يختار الشاب نفسه عروسه من بين الفتيات اللاتي تعرف عليهن ويقع الاتفاق رأسا بين الشاب والفتاة دون أن يعلم أحد من الأولياء ، ثم يجيء الفتى برغبته الى أمه أو إحدى قريباته فتشرع في جس نبض عائلة الفتاة فان وجدت قبولا أعلنت الخطبة وإن لم تجد قبولا أبلغت ذلك الى الشاب ليتولى بنفسه اختطاف فتاته . وقد يصل أحيانا الى وسيلة الاختطاف دون مقدمات ، فيتقلد سلاحه ويذهب وحده أو مصحوبا ببعض أقاربه راكبا فرسا إن كان المكان بعيدا أو راجلا إن كان قريبا – يذهب الى المكان الذي وعد فيه فتاته بالملاقاة ليلا ومن هناك يرفعها الى أحد كبار الأحياء المجاورة وغالبا ما يكون ذا حيثية في الحياة الاجتماعية كشيخ قبيلة أو عدل أو قاض أو عين من الأعيان يستطيع حماية الفتاة فتبقى في منزله مبجلة مكرمة حتى يحين موعد نقلها الى زوجها الذي اختارته .

وقد يعمد بعض الأحياء الى إطلاق البنادق في عملية الاختطاف هذه المسماة عندهم (الهروب)

كناية عن انتصارهم وعدم خوفهم من اللاحقين ، وقد يلتحق بهم بعض أقارب الفتاة فتحدث بين الجانبين معارك دامية .

ولما كان سكان البادية التونسية يعتنقون المذهب المالكي الذي يجعل للوالد حق جبر ابنته على زواج من يريد ، فان الشاب أو وليه يسرع حال اتمام الاختطاف الى القاضي الشرعي ليعلمه بالأمر وهذا يتصل بالفتاة شخصيا أو بواسطة العدول لتصرح أنها تتمسك بالمذهب الحنفي الذي يجعل لها وحدها الحق في اختيار زوجها وتصدر لها الفتوى بذلك من المجلس الشرعي بالعاصمة ، واذ ذاك يأذن القاضي باتمام عقد قرانها على من اختارته بواسطة وكيل تختاره ، وتصرح أمام العدلين باسم وكيلها في العقد وينتج عن عملها هذا أنها تحكم على نفسها في الغالب بقطع كل علاقة لها مع أهلها طول حياتها أو على الأقل لمدة طويلة حتى تلد الأولاد فيكونون وسيلة عودة الصلة بينها وبينهم . وعملية الاختطاف هذه من العادات التي اختفت ولم يبق لها أثر في العهد الحاضر .

[illegible]

وهذا العقد يقع ــ كما أشرنا الى ذلك سابقا ــ اما اثر اعلان الخطبة مباشرة أو يؤخر الى موعد الشروع في حفلات العرس أو أثناء الحفلات وقبل ملاقاة الزوجين .

وقد يباشر العقد والد الفتاة وقد يسند ذلك الحق الى كبير العائلة الذي له حق التصرف في أبناء العائلة كلهم ولا يستطيع أحد الخروج عن ارادته ولا يتم أمر بدون مشورته .

والعقد الرسمي المطلوب هو تصريح ولي الزوجين أمام عدلين رسميين لتسجيل العقود بصيغتي القبول والايجاب ويكتب العقد ويمضي عليه الوليان دون حضور الزوجين ، وقبل الحرب العالمية الثانية اشترط القانون امضاء الزوج بنفسه أو وليه ان كان يحمل توكيلا رسميا عنه ، أما الفتاة فيمضي وليها بدلا منها وقد أصبحت مطلوبة اليوم بالتصريح بالقبول ولا يكتفي بسكوتها .

اختفــاء الفتـــاة

وينتج عن اتمام الخطبة أو العقد اختفاء الفتاة عن خطيبها في أكثر الأحياء البدوية اظهارا للحشمة وتمسكا بالحياء العذري ، وهي عادة مفروضة على الفتاة بالخصوص حتى لا يشاع عنها أنها مشتاقة الى زوجها ، وشوقها الى الزوج معناه فقدها للحياء ، واتصافها بسوء التربية وفساد الأخلاق . هذه هي النتيجة الظاهرة للاختفاء أما النتيجة الثانية غير الظاهرة لهذا الاختفاء فهي دفع الخطيبين الى شوق مفروض يشتد أواره ويطول سعاره ، بطول المدة السابقة للبناء حتى اذا وقع البناء كان شوق الزوجين على أشده فيثمر الثمرة المطلوبة وهو الحب الذي تزيده العشرة في الغالب قوة ومتانة .

[illegible]

تكاد تكون حفلات العرس متماثلة أو متشابهة على الأقل في أطراف البادية التونسية من بدايتها الى نهايتها ونحن مضطرون الى وصف هذه الحفلات ، حسب الطريقة الموجودة ، عند أغلب البدو ، فهم يختلفون مثلا في أيام العرس فيجعلها بعضهم ثلاثة وبعضهم سبعة ولكنهم يتفقون على أن تكون بالعدد الفردي ، أي لا تكون أربعة أو ثمانية مثلا ، كما يختلفون في لبس بدلة العرس فبعضهم يلبسها في اليوم الثاني كما هو موجود في قبيلة العوينة من المرازيق ، وبعضهم يلبسها في اليوم الثالث والأخير كما هو موجود في قبيلة دوز من المرازيق أيضا ، ويختلفون في استقبال الزوجة ليلة الدخول ، فقد يدخل العريس على عروسه داخل خدرها ، لا تتحرك ولا ترد تحية حتى يرفع العريس حجابها كما هو معمول به في المرازيق أيضا . أما عند أولاد يعقوب من معتمدية قبلي ، فان العروس تستقبل زوجها خارج الخدر ويؤتى لهما بجدي من المعز تمسكه العروس ويذبحه العريس ، واثر الذبح تفلته العروس وتجري الى الخدر بينما يجري خلفها العريس محاولا اللحاق بها وضربها بعصا صغيرة ، فان استطاع ذلك فهو علامة على تغلبه عليها في حياتهما المقبلة وان سبقته فذلك علامة على أن الغلبة ستكون لها ، على أن هذه الخلافات البسيطة ليس لها تأثر على العادات الأصلية في العرس التي تتماثل تقريبا ،

ولذلك فسنقتصر على وصف العادات البارزة التي يشترك فيها الجميع .

حفلة الافتتاح

في صباح أحد أيام الاسبوع ــ على شرط أن لا يكون يوم الاربعاء الذي يتشاءمون به ــ وعند طلوع الشمس تكون كمية من حبوب الشعير موضوعة فوق فراش نظيف وعدد من أواني القلي الحديدية في اماكنها على كوانين تلتهب بالنار ، تنتظر ورود جماعات القرائب والجارات للاشغال بقلي الشعير

واول من يفتح الحفلة والدة أو أخت العريس بزغردة تتبعها أغنية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وحالما يصل صدى الزغاريد والأغاني الى آذان الجارات والقرائب يهرعن الى منزل العريس حاملات معهن أواني الطحن من غرابيل وأطباق ويتفرقن مغنيات مزغردات ، هذه لتصفية الشعير مما يخالطه من حصى وأوساخ ، وتلك لقليه ، والأخرى لطحنه ، والرابعة لغربلته ، ويستمر الغناء والزغاريد على أن الأغاني لا تتخطى الصلاة على النبيء والرجاء من الله أن يكون العرس مفتاح خير وبركة ، ومن الأغاني المعروفة في هذه الحفلة :

صلى اللــــه على الهادي نبينا

بـــابـــا فاطمـــــه زايـرينـه

الهــــــــــادي المـزمــــــزم
بـابـــــا فاطمه وعيشه ومريم

قـد الـــرعد في مزنـــه تكلـم
قد الزرع والي حاصدينه الخ ...

ولا ندري من أين جئن للنبي صلى الله عليه وسلم بعائشة ومريم وعدهما في بناته ، وقد الرعد أي بحساب دوي الرعد في السحاب وبحساب الزرع والذين يحصدونه .

ويتفرق جميعهن حوالي منتصف النهار عائدات الى منازلهن .

أما العروسان فيختفيان من الصباح عن أعين كبار العائلة ، تختفي العروس داخل بيتها أما العريس فيختفي عند أقاربه أو أصدقائه .

وبعد الظهر تعود النساء أنفسهن الى الاجتماع مزغردات مغنيات ، ويشتغلن بلت السويق ، وعادة يخلط بشيء من معجون التمر والماء ، والزيت ثم يقوم الى كرات متوسطة الحجم تفرقها قريبات العريس على الأحياء فتهدي كل كرة الى ربة عائلة كناية عن استدعائها رسميا للمشاركة في حفلات العرس ، والمهدى اليها لا تستطيع الامتناع من الحضور لأن ذلك يعتبر عنها عدم اكتراث بالمهدى ويجر امتناعها الى خصام وتقاطع بين العائلات .

أما الفتيات فتهدى اليهن قطع من القماش الأبيض يتراوح طولها بين المتر ونصفه ليصنعن منه ما يسمى (بالمقدال) وهو قطعة توضع فوق الكتفين وتربط بالخلال على الصدور وهي من عناصر الزينة . وفي بعض الجهات يقع إهداء أنواع أخرى من الأكسية كالخمر المزركشة والثياب الملونة على أن هذه الهدايا تكون على حسب ظروف العريس المادية .

وفي هذا الاجتماع نفسه ــ يعد طبل العرس ــ وهو عبارة عن قصعة من الخشب تغطى بجلد متين يربط ربطا محكما عليها ليقع نقره في الحفلات الموالية وتتفرق المجتمعات عند غروب الشمس .

ومما يجب أن يلاحظ أن الرجال لا يشتركون في حفلات اليوم الأول هذا ، وتبدأ مشاركتهم في حفلة الليل الآتية .

حفلة الليل

لا يكاد ينفلت الناس من صلاة العتمة حتى تسود الحركة كل منزل استعدادا للحفلة الليلية ، فالشبان ينظمون الحلقات يتذاكرون الأشعار ويتمدحون بجمال محبوباتهم ، والشيوخ ينحدرون الى مجالسهم ونواديهم الاعتيادية منتظرين أن يصل الى أسماعهم صوت نقرات الطبل ليقصدوا ساحة الحفلة متذكرين فيها أيام شبابهم منصتين الى أغاني المرح والفتوة . والنساء في حركة دائبة يسرعن في اعداد المحسنات والمزينات ولبس أفخر الثياب والحلي والتعطر بأزكى الروائح ، كل واحدة تقف على زينة ابنتها تتفقدها لتظهر في المظهر اللائق بين الفتيات ، وهي لا تكتفي بما لديها من معدات الزينة بل تستعير من الجارات والصديقات ما يساعدها على اظهار التفوق في الزينة والتجمل .

وأخيرا تنطلق من ساحات الحفلة نقرات الطبل مدوية تتبعها الــزغاريد اعلانا عن الشروع في الاحتفال ، فتنحدر قوافل الفتيات يتخطرن في أسراب كأسراب الظباء وقد تعطر الجو بأنفاسهن فتخفق قلوب الشبان وينحدرون زرافات خلفهن وكأنهن الدمى القادمة لمعرض فني ، فكم من جمال مخبّأ تحت الجلابيب وكم من فتنة تخفيها الأردية عن أعين الشباب المتوثبة ، ولا ينسى الشيوخ أن يتبعوا الجميع الى الساحة .

وفي ساحة العرس الكبرى تجتمع النساء في كردوس واحد تجلبب بالسوداء فلا تظهر تحته الا بعض لمعات براقة لحلي احدى المتبرجات بينما يصطف الرجال في الجهة المقابلة على شكل هلالي تفصل بينهم وبين النساء مساحة تتراوح بين الخمسة والعشرة أمتار فما فوق حسب اتساع الساحة وضيقها .

ويبدأ الحفلــة بعض النساء ذوات الأصوات الجميلة بالقاء أغان منغمة حسب الحان بدوية مرسومة بأسماء الأحياء التي صدرت عنها فيقال : صوت دبابي ، نسبة الى قبيلة أولاد دباب ، وصوت شهيدي ، نسبة الى قبيلة أولاد شهيدة ، وصوت يعقوبي ، نسبة الى قبيلة أولاد يعقوب وهذه الأغاني لا تكــون الا من نوع ما يسمى بالمـلـــزومة (عرضاوي) ويقتصر عادة على المطالع فقط المتركب من بيت ذي غصنين أي صدر وعجز ، متحدي الروي مثل :

ثم يأتي من يحي الحفلة ، واحياؤها باحد نوعين حسب الامكــانيات ، فاما أن يحييها الشعراء بأزجالهم وقصائدهم المطولة ، واما أن تحييها جوقة (الطبلة والزكرة) .

فطريقة احيائها بواسطة الجوقة تتمثل في حضور جوقة تتركب على الأقل من عازف الزكرة المسماة في بعض الجهات (غيطة) وضارب على الطبلة المسماة (طبالــه) يصحبهما ثالــث يسمى البراح أو الوراش ، وقد يصعد عدد أفراد الجوقة الى ثمانية أو عشرة ، عازفين اثنين أو ثلاثة ، والباقي ضاربو طبلة ، يصحبهم دائما الوراش ، وكلهم يلبسون لباسا خاصا يتركب عادة من جلال أبيض ويسمى عند البعض (جلوالي) يربط أعلاه حول الخصر وينزل أسفله الى الكعبين ومهمته أن ينتشر حول لابسه في شكل دائر عند دورانه ومن صداري ذات لون أحمر في الغالب أعلاها (منتان) طويل اليدين وقد يستغنى عنه أحيانا بالقميص ذي اليدين ، اما لباس الرأس فشاشية عند بدو جهة الجنوب الغربي وعمامة صفراء في الجنوب الشرقي كجربة ، والطبة أو الطنبور يختلف حجمه فعند البعض متوسط الحجم وعند الآخرين ـ كما في جربة ـ من الحجم الكبير .

وأفراد الجوقة يعملون وقوفا فيقصدون الرجال لينفحوهم بمبالغ مالية ثم يرجعون راقصين الى مجمع النساء وهناك تسكت الجوقة لينطلق صوت الوراش معلنا عن اسم (الراشق) وهو الــذي تسلموا منه المبلغ المالي ليزغرد عنه النساء .

وطريقة الاعلان عن اسم الراشق تختلف بحسب حذق الوراش لصناعته فيقدم اسم صاحبه بكلمات مسجوعة او منظومة مثل :

ما تقولي منين يا ذابل العين ؟ من عند سيد الاسياد ، كريم الاجواد ، دلال الشواشين (اي السمران وهم اصحاب الجوقة) سيدي فلان بن فلان ..
قال : ما رميت (اي اعطيت النقود) كان :

وقد يعمد الراشق الى تأليف بيت او بيتين من الشعر الملحون يلقيهما الى الوراش يشير بهما الى فتاة مقصودة او الى شخص مقصود من المنافسين فيعيدهما الوراش الذي يطلب من الشخص المقصود ليلقي اليه بيتين يرد بهما عن صاحبه وهو لون من الادب الطريف الذي كانت له شهرة ذائعة وقد اختفى هذا اللون اليوم من الاعراس .

وهكذا تستمر جوقة الطبلة على هذا النسق الى ختام الحفلة .

اما الطريقة الثانية وهي احياء الحفلة بالعشاء وتسمى (الموقف) فتتمثل في قيام احد الشعراء مصحوبا بمساعد او اثنين بالقاء قصائد متنوعة من شعره او من محفوظه واقفا امام النساء بألحان تختلف باختلاف نوع القصيد ، فالقسيم يلقى بنغمة تخالف نغمة الملزومة التي تخالف نغمة المسدس الخ . وهذه الاشعار تجتمع فيها اغراض كثيرة من نسيب واجتماعيات وهجاء احيانا ووصف الخيل والنجائب ووصف الحرب والثناء على ابطالها والنيل من الجبناء ، وتفتح او تختم الحفلة غالبا بالمكفر وهو شعر التوحيد والصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم ، وكلما انتهى شاعر خلفه غيره الى ختام الحفلة .

وهناك عادة كانت متبعة الى ما قبل الحرب الاخيرة وهي ما يسمى (ربط العرس) فاذا تنافس شاعران عمد احدهما الى عملية (ربط العرس) فيأتي بقصيد يثني فيه على نفسه ويفتخر بشعره ثم يعقبه بلغز ، واهل البادية يذعنون كثيرا لاحكام هذه العادة وشروطها ، فاذا ربط العرس احد الشعراء فلا يمكن ان يخرج من الحفلة او يدخلها انسان حتى يحل الشاعر الثاني اللغز المقصود ، والحل عبارة عن تمكنه من فهم اللغز بكلام منظوم على القواعد الشعرية واذا لم يهتد لذلك سقط سهمه بين الشعراء وأفل نجمه ويبقى العرس مربوطا حتى يتفضل صاحب اللغز فيحله بنفسه ، فيقوم متخطرا نشوان بانتصاره على خصمه ولكن الدنيا دول ، فيوم اليك ويوم عليك ، فالشاعر المنتصر قد يصبح عرضة للفشل ، في حل لغز يرميه به المنهزم في الليلة القادمة واذا حل اللغز انفتح باب الدخول والخروج للناس ، ومن قواعدهم ان لا تقع هذه العملية الا مرة واحدة في الحفلة الواحدة ، وكثيرا ما تؤدي هذه العادة الى خصومات دامية وعداء مستمر بين الشعراء ومن يلوذ بهم ، وقد اختفت هذه العادة اليوم .

عمليـــة النـــخ

وهذه ايضا احدى العادات التي اضمحلت اليوم ، ويسميها البعض (النخ) والبعض الآخر (الهز) وهي عبارة عن رقصة جماعية تقوم بها الفتيات او الشابات الصغيرات على نقرات الطبل وانغام الشاعر وصورتها ان تتقدم الفتيات في آخر الحفلة الى أواني الزيت المقدمة من طرف أصحاب العرس فيسقين شعورهن زيتا ثم يصطففن في خط منتصبات على ركبهن مسدلات الشعور حاسرات الرؤوس مكشوفات الوجوه متحدات اللباس بينما يصطف امامهن الرجال يتوسطهم الشاعر ومساعداه وامامه طبل العرس ينقره بعصاه وتنفرج النساء الواقفات امام بناتهن عن صف من الفتيات يرقصن على نغمات الشاعر ، تساوقها نقرات الطبل ، بتحريك رؤوسهن . ورمي شعورهن الى اليمين فالشمال فالامام فالخلف .

واغاني الشاعر عادة لا تتخطى نوعا واحدا يسمى بالمسدس العريض في النسيب ويبدؤه في بعض الجهات بقوله :

على ضربة الطبل يا بنت شالي
غشيشك حمالي
كان طالبه الفتن تعالي

(ارقصي يا فتاة على ضربات الطبل فشعرك طويل واذا كنت تطلبين القتال فهيا تقدمي) وعملية النخ هذه تقع ليلا عند البعض ونهارا عند الآخرين كما في قبيلة العذارة في الجنوب الغربي من تونس .

وتختم الحفلة الليلية عند ظهور التعب على الراقصات أو على الشاعر بقول أحد حماة العرس صائحا : (دام . دام) اي انتهى ويعمدون الى كلمة (دام) تبركا وتيمنا بأن يدوم الفرح . وهذه الحفلة لا تحضرها العروس التي تكون مختفية في منزل أهلها .

حفلات اليـوم الثـاني

في صبيحة اليوم الثاني ترجع النساء الى منزل العريس حيث يجدن أكداس الحبوب من قمح وشعير وعشرات من الارحية الحجرية تنتظر فوق جلودها فيشتغل بعضهن بتصفية الحبوب والبعض الآخر بطحنها بينما تشتغل جماعة اخرى بغربلتها وتقسيمها الى انواع وتملأ اطباق من سعف النخيل بكميات من الحبوب ايضا ترفعها الفتيات على رؤوسهن مغنيات مزغردات ، يوزعنها على الاجوار لتتولى الجارات طحنها وارجاعها الى منزل العرس مساعدة منهن لاهله ، وهذه الجماعات الموزعة للحبوب تتبعها جماعات من الشبان تطلق البنادق في

كل موقف ولا تسل عما يثيره ذلك البارود من غبار وأتربة في وجوههن فلا يجدن ادنى حرج بل يقابلنه بانفجارات الزغاريد وتنتهي هذه الحفلة منتصف النهار .

وبعد الظهر تبتدا الحفلة الثانية باجتماعهن في منزل العرس من جديد ليخرجن الى حيث يكون العريس صحبة اصدقائه حاملات فوق رؤوسهن بدلة العريس مغنيات مزغردات متبوعات بجماعات الشبان يطلقون البنادق امامهن فيتلقاهن العريس في مدخل المكان جالسا على ركبتيه ، فيضعن بدلته فوق راسه ثم يرجعن بينما يتحول هو الى داخل المكان حيث يتلقاه الحلاق فيحلق ثم يلبس بدلة العرس . وقد نبهنا سابقا الى ان بعض الجهات لا تقع فيها هذه العملية الا في اليوم الاخير ، واذا كانت في الحفلات جوقة (الطبالة) فان الجوقة تصحب حمل بدلة العرس وترقص في المنزل .

وترجع حاملات البدلة اولا الى منزل العريس ليحملن من جديد بدلة العروس التي تكون في منزل العريس فيرفعنها على رؤوسهن الى منزلها حسبما وقع مع العريس واثر وصولها تتولى النساء تزيين يدي ورجلي العروس بالحناء وتنتهي هذه الحفلة برجوعهن .

وتتجدد حفلة الليل على نسق الليلة الاولى ، الا ان شيئا جديدا يقع في الليلة الثانية وهو ان العروس تحضرها لأول مرة وتنتقل من منزلها الى منزل الزوج محفوفة بصف من الفتيات المغنيات المزغردات ماشية وعند ختام الحفلة ترجع الى بيتها وتشارك في عملية النخ متوسطة لصف الفتيات الراقصات وتتميز بينهن بانها لا تلبس (المقدال) الابيض الذي اشرنا اليه سابقا .

حفلة الحناء

لقد ذكرنا عملية الحناء الاولى ولم نتعرض الى الكيفية التي تقع عليها .

فالتقاليد المتبعة في ذلك ان العروس تجلس على منبر مرتفع تدور بها حلقة من النساء يطرحن فوق رؤوسهن لحافا ابيض ويتولى بعضهن تزيين يديها ورجليها بالحناء . بان تضع الحناء معجونة في الكفين وفي باطن الرجلين وتلف بقطع القماش حيث تستقر مدة ثم تنزع وفي هذه العملية تغني رفيقاتها اغاني تقليدية في كلامها وفي نغماتها منها :

حنا قابسية جابوها التجار
فيدك يا لوخية ان شاء الله تحمار

(اي ان الحناء جلبها التجار من قابس وهي معروفة بجودة انتاجها قد زينا بها يديك رجاء احمرارها)

حفلات اليوم الثالث

لا تقع أية حفلة في صباح اليوم الثالث وبعد الظهر تجمع القرائب والجارات بمنزل العرس فتنصب القدور وتشتغل المجتمعات باعداد طعام الكسكسي وتنبح الذبائح من الضأن او المعز أو البقر ، فيطبخ لحمها لاطعام المدعوين وتستمر عملية الطبخ كامل الليل في منزل العرس اما الحفلة الليلية فتنصب عند اهل العروس وجميع مصاريفها عليهم ويجرى فيها ما يجرى في الليلتين الماضيتين لا تختلف عنهما بسوى امرين :

الامر الاول : ويختص بحفلات الطبالة وهو ان العريس يقف في آخر الحفلة في صف من اصدقائه ليرشقوا مبالغ مالية على افراد الجوقة ويتميز العريس بينهم بوضع جناح برنسه على رأسه .

والامر الثاني : عملية النجمة وصورتها ان تذهب العروس في صف طويل من صديقاتها وقرائبها ماشيات يغنين ويزغردن فيطفن حول مكان معلوم وغالبا ما يكون مكانا مقدسا عندهم كضريح ولي صالح مثلا ــ يطفن حوله ثلاث مرات تتقدمهن جوقة الطبالة ان كانت او جماعات من الشبان وفي ختام الدورة الثالثة يقفن في مكان معين لتلقي العريس الذي يأتي في جماعته ويقصد العروس ذات اللحاف الابيض بين النساء الملتفات بالسواد ليجد يدها اليمين ممدودة اليه بكرة من عجين الحناء فيمسك رسغها بيده اليسرى ، وياخذ الحناء باليمنى ثم يرجع الى اصحابه بينما تذهب العروس الى منزلها لتجدد لها عملية الحناء من جديد ، يزين العروس يده اليمنى بالحناء فيصبغ بها نصف كفه الاعلى وعند الفجر تاتيه هدية العروس المتمثلة في كمية من الخبز

المعجون بالسمن والتمر وتسمى (خبزة الشب) فتوزع على الجماعة ولا ادري وجها لهذه التسمية وتعتبر هذه الليلة آخر العرس ولكن التقاليد تقضي بعمليات اخرى تستمر الى اليوم السابع .

في اليـوم الـرابع

منذ شروق الشمس يتفرق اعوان صاحب العرس في جميع الاحياء داعين الرجال الى طعام العرس والدعوة عادة تكون عامة لجميع السكان اذا كانت ظروف صاحب الدعوى قاضية بذلك ، اما اذا كان قليل ذات اليد فتقتصر الدعوة على رجال حيه الذي ينتسب اليه وتشمل الدعوة عادة شيوخ العلم ، ورجال السلطة وفقراء المسجد والزوايا ، وطلبة الكتاتيب والجوامع فترى الجماعات تتوارد على المنزل زرافات تغدو خماصا وتروح بطانا والطعام يقتصر على الكسكسي واللحم ، وتستمر حركة اطعام الواردين الى الظهر .

حفلـة الجلـوة

وبعد الظهر تجتمع النساء في بيت العروس على منبر مرتفع ويحطن بها في دائرة مسقوفة برداء ابيض يطرح فوق رؤوسهن وتستسلم للمزينات والماشطات وهي تبكي على فراق اهلها وهن يغنين لها باغاني تقليدية منها :

علاش تبكي يا [illegible] [illegible] [illegible]
بين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

وهن يرددن هذه الاغنية سواء كان الزوج ابن عمها او غريب وسواء كانت جارة لامها او ستنقل بعيدا عنها .

هودج العروس

ويحضر اهل العريس الى منزلها جملا متينا يربطون على ظهره هودجا يغطى بالاردية الملونة واثر الانتهاء من عملية الزينة تنقل العروس الى الهودج يقودها رجل يجب ان يكون اسمه (محمدا او عليا) فتركب الهودج مصحوبة بصبي اسمه (محمد أو علي) ويظهر ان اختيار اسم محمد أو علي يرجع الى عادة شيعية قديمة ورثها بدو الجنوب التونسي بالخصوص على اجدادهم الذين انجرت لهم من ايام انتشار المذهب الشيعي بينهم حين كانوا في صعيد مصر في عهد الدولة الفاطمية ، والعادات الموروثة عن الشيعة لا تزال منتشرة في بادية تونس تظهر في مناسبات عديدة غير الاعراس كحفلات عاشورا التي تبرز فيها بروزا واضحا .

ويقاد جمل العروس بواسطة اسمر او سمراء تصحبه جماعة من الفتيات الصغيرات وبعض العجائز الى مكان معين حيث يتلقاه الفرسان فيلعبون على الخيل العابا عجيبة ويحاول كل واحد منهم ان يظهر براعة اكثر في فروسيته ، وخارج الملعب يجتمع المتفرجون في صفوف متراصة يصفقون ويهزجون بينما تلقي صبيات الهودج اغانيهن التقليدية التي منها :

جحفـة يا جداري وجملها العنيف
راجلها المسمى لباس الرهيف

والجحفة هي الهودج والمقصود ان الهودج مصنوع من خشب الجداري وهو شجر جبلي صلب والجمل الحامل قوي متين اما الزوج فهو المسمى اي ذو الصيت المشهور ولباسه من الحرير اللين كناية عن غناه وترفه ، ومنها :

[illegible] يا زينة [illegible] [illegible]

فهم يعتقدون ان العروس تجلب معها الى بيت الزوج الخير او الشر فهما معقودان بناصيتها ويتردد على افواههم هذا المثل :

(نواصي وعتب والبعض من الذرية)

فالخير والشر معقودان بناصية الزوجة وبعتبة البيت ، وبوجوه الابناء ، فلذلك كان اول ما يطلبون في اغانيهم عند الخروج بالزوجة الى بيت الزوج ان تكون مباركة عليه وعلى اهله ، واية بركة عند البدوي الساكن بالجهات الجافة اعظم من نزول المطر ، فاذا نزل الغيث اثر وصول العروس تيمنوا بناصيتها وقالوا (انها عرقوب خير) او (عرقوبها مبارك) .

ويدور جمل العروس على المكان المعين ثلاث دورات ثم يقصد بيت الزوج مصحوبا بالفرسان

حتى اذا قاربوا تغنت الصبايا مفتخرات :

يا سعـي ان سعينا يا سعـي الحـلال
جبنـاه وجينــا بحيـاة الرجـال

وتذكرني هذه الاغنية باغنية كانت تغنى في مثل هذه المناسبة في حياة النبيء ـ صلى الله عليه وسلم ـ روت المصادر التاريخية ان عائشة ـ رضي الله عنها ـ ذهبت مع عروس للانصار فسألها النبيء صلى الله عليه وسلم : هل غنيتن عند اهدائها الى زوجها ، فان الانصار يطربون للغناء ، فقالت لا ، فقال هل قلتن :

أتينـاكـم أتينـاكـم فحيـونا نحييكـم
لولا الحبـة السمراء لـم نحلل بواديكـم

ويناخ الجمل امام البيت المعدة للعروس . وعند بعض الاحياء عادات غريبة في هذه المناسبة معقدة لا نستطيع تعليقها ، منها ، ان الجمل يناخ حتى اذا طوى رجليه نازعا للبروك ، يزجر للوقوف ، فيقف ثم يناخ ثم يقف ثلاث مرات وفي الثالثة تنزل العروس فيتلقاها النساء بينهن لتقصد غرفتها وعند باب الغرفة تسلم لها بيضة دجاج تحطمها بيدها اليمنى على واجهة الباب العلوية ثم تجتاز العتبة وتدخل الى مخدعها ، وعندما يهبط ظلام الليل ياتي العريس الى بيته في صف من اصدقائه يترنمون ببردة البوصيري او بهمزيته تساوق انغامهم جوقة الطبلة والزكرة ان احيت هذه الجوقة حفلات العرس ، وعند باب الغرفة يقف المصاحبون له يتممون ابيات البردة او الهمزية بينما ينفلت العريس الى داخل الغرفة ليجد عروسه جالسة وحدها خلف حجاب من الاردية يفصل بينها وبين اصحاب العريس الذين سيدخلون فيما بعد ليجلسوا خارج الحجاب ويتولى العريس رفع نقاب عروسه وغالبا ما يقدم اليها هدية في هذه المناسبة .

وقد ذكرنا سابقا ان تقاليد بعض الاحياء تقتضي تلقي العروس لزوجها خارج الغرفة لتمسك له ذبيحة ثم تنطلق هاربة الى مخدعها اثر عملية الذبح . وهو يجري خلفها ليتمكن من ضربها بعصـاه قبل الوصول ، وقد اشرنا سابقا الى تعليل هذه العادة كما ان بعض الاحياء تقتضي تقاليدهم ان تتلقى العروس زوجها داخل الحجاب واقفة وهو الذي يجلسها اثر رفع نقابها .

وبعد اتمام القدر المعلوم من البردة او الهمزية يدخل (العراسة) اي اصحاب العريس الغرفة ليجلسوا في حفلة خارج الحجاب ويقرؤون (حزب ياسين) من القرآن الكريم ، وهو عندهم سور : ياسين ـ والملك والاخلاص والمعوذتين والفاتحة ـ ثم آيات من اول سورة البقرة . وعند الانتهاء يؤتى لهم بالطعام ولا يمسونه حتى يقدم للعريس فيضع فيه اصبعه .

وينتهي الطعام فيخرجون مصحوبين بعريسهم عند البعض ليرجع الى عروسه بعد هزيع من الليل مصحوبا بوزيره فقط ، وعند البعض الآخر لا يخرج مع اصحابه وانما يبقى مع عروسه الى صباح اليوم التالي .

وقرب الفجر يرجع العراسة الى البيت ليقدم لهم الطعام من جديد وليطلعوا هل ان صاحبهم فارس تمكن من الانتصار ام انه فشل في الميدان .

وكثيرا ما تقتضي التقاليد بحدوث مأس مؤلمة ومخجلة بالنسبة للطرفين ، فان كان الفشل من الرجل فانه يبقى مدة مغضوبا عليه مطأطىء الراس منبوذا وموضع سخرية الجميع ، وان كان العيب في العروس بان وجدت ثيبا فالطامة الكبرى اذ يلجأ زوجها الى طردها حالا او بعد ايام حسب قوة احتماله للصدمة ، وقل ان يوجد العاقل الذي يصبر مدة طويلة ليختار مناسبة اخرى للفراق حفاظا منه على سمعة الفتاة ، اما السكوت تماما والرضا بالواقع فهذا لا يوجد في تقاليد البادية وكثيرا ما تؤدي فضيحة الفتاة هذه الى قتلها من طرف ابيها (وليها) ويعمد بعضهم الى اعلان الانتصار ليلا بواسطة اطلاق البارود كما يوجد ما هو اغرب من هذا كله وهو ان يقف العراسة امام باب الغرفة يتفقدونه بالطرق من حين الى آخر ليسرع العريس باعلان الانتصار ، على ان المخجل في الامر هو انهم لا يصدقون مجرد الاعلان ، بل لا بد من اطلاعهم على الدليل المتمثل في الثوب الملطخ بالدماء .

ويخرج العريس مع الفجر ليتنفس اهل العروس الصعداء وتفتخر امها امام النساء بعرض دليل عذرة ابنتها أو ليقيموا مأتما في منزلهم اذا كانت ابنتهم غير عذراء .

حفلـة الصبـاح

والصباح هنا ليس المقصود منه الزمن المعروف ولكن يطلقونه على هذه الحفلة فتجتمع النساء بمنزل

العروس لتتجلى العروس على منبر تحيط بها المزينات والماشطات بين غناء وزغردة وترقص فيها جوقة الطبالة ولا تدوم هذه الحفلة عادة أكثر من ساعة ثم يتفرجن على الجهاز الذي جلبته معها ويشترين منه لبناتهن على ان يبقى معروضا في غرفة العروس الى اليوم الثالث ثم يستطعن رفعه وتنتهي حفلات العرس الا ان العروس تبقى ملازمة لحجابها يومين آخرين وعند هبوط الظلام يأتي العريس مع اصدقائه يتغنون بالبردة أو الهمزية حسبما جرى في الليلة الماضية ولكن بدون جوقة الطبالة ، وكذلك اصحابه لا يرجعون آخر الليل كما وقع في الليلة السابقة بل يخرج من البيت وحده وتعاد عملية جلبه بالبردة في الليلة الثالثة ايضا .

الخروج من الحجاب

وفي هذه الليلة تنزع العروس ثياب العرس لتلبس العادي ويصحبها زوجها عند بعض الاحياء في زيارة قصيرة الى احد الأمكنة المقدسة عندهم كضريح ولي صالح .

وفي الصباح الموالي تخرج لتحيي حماتها ولتشتغل في البيت شغلها العادي وأول ما تبدأ فيه اعداد طعام العائلة وتستمر حياتها عادية كربة بيت .

قصعة الرضا

وفي اليوم السابع من تاريخ وصولها الى بيت الزوجة تعد العروس قصعة الرضا ، وهي عبارة عن قصعة طعام من الكسكسي واللحم تحملها ليلا على رأسها الى بيت والديها مصحوبة عادة بحماتها لتزور اباها وتحييه بعد فراقها له كامل مدة العرس والايام الموالية وتقضي مع اهلها سمر تلك الليلة ولا ترجع الى بيتها الا مؤخرا والرضا هو رضا ابيها عنها ومقابلتها له بعد الاحتجاب عنه اما امها فلا تحتجب عنها .

وأما زوجها الذي يحتجب هو ايضا عن والديه وكبار العائلة منذ ابتداء العرس فانه يسافر الى مكان قريب ليأتي الى اهله في صبيحة اليوم السابع من دخوله على الزوجة فيحييهم ويرتفع الحجاب بينه وبينهم .

ويعتبر هذا اليوم نهاية العرس وتقاليده ليدخل مع عروسه في الحياة العادية .

نظام العراسة

العراسة هم اصحاب العريس واصدقاؤه الذين يصاحبونه اثناء حفلات العرس ويقومون على شؤونه وغالبا ما يكونون من اقاربه ويختار العراسة في البادية مكانا معينا يكادون لا يفارقونه ليلا أو نهارا ، حتى يمكن للأصدقاء والمهنين ان يتصلوا فيه بالعريس ، وهذا المكان اما ان يكون احد منازل القرية وإما ان يكون خيمة تنصب لهم خاصة خارج القرية وقد يكون بستانا من بساتين القرية .

وللعراسة نظام دقيق على اسلوب الانظمة الحكومية ، يكون فيه العريس (سلطانا) وهكذا يسمى ، وهو يختار بنفسه (وزيرا) من جماعته ويشترط في هذا الوزير ان يكون محرما بالنسبة للعروس حتى يتمكن من مقابلتها حسب ما يفرضه عليه وظيفه . والوزير يختار من الجماعة قاضيا للحكم في المشاكل الصغيرة ، أما المشاكل الكبيرة فتترك للسلطان (العريس) كما يختار من بينهم اثنين على الأقل يمثلان الشرطة يقومون بتنفيذ الاحكام الصادرة ضد أي واحد من العراسة يرتكب مخالفة .

والغريب ان هذه الاحكام قد تكون قاسية على المحكوم عليه وفيها نصيب من الخشونة والايلام البدني ولكن المحكوم عليه يتقبلها بنفس رضية وروح راضية . فقد يحكم على احدهم بالشنق فياتي الشرطيان ويعلقان المحكوم عليه منكسا على خشبة نخلة بواسطة حبل متين يربط في رجليه ويديه ، ولا ينزل من مكانه الا بعفو من السلطان . وهناك احكام اخرى يختص باصدارها القاضي وغالبا ما تكون بغرامات مختلفة تمثل كميات من الشاي والسكر تستعمل لشرب العراسة أو بأشياء اخرى كطعام او فاكهة .

ولجماعة العراسة العاب مختلفة يمارسونها اثناء وجودهم مع العريس في ايام العرس وغالب الالعاب تتمثل في انواع من الرياضة نستعرض اهمها فيما يلي :

1 ـ القـــراش (المصارعة)

يمارس جماعة العراسة لعبة القراش وهي المصارعة المعروفة وتتمثل في مجابهة اثنين لبعضهما بعضا ، يحاول كل منهما ان يحتال لصرع صاحبه ، فاذا تمكن من ذلك واستطاع ان ينزله الى الارض ويحول بينه وبين الافلات كان غالبا ، والمصروع مغلوبا . فاذا غضب المصروع ولم يتقبل الهزيمة بروح رياضية حكم عليه بغرامة .

2 ـ رفـع الاثقـال

ومن الالعاب الرياضية التي يمارسونها لعبة رفع الاثقال المعروفة وتتمثل في وضع شيء ثقيل كصخرة مثلا يتقدم اليه احدهم ويرفعه والمنتصر هو الذي يستطيع رفعه على يديه فوق رأسه وتسمى عندهم (العبار) كما تتمثل هذه اللعبة ايضا فيما يسمى عندهم (بهز الميت) وهو ان يرقد احدهم ممددا على ظهره ويمسك تنفسه ويتقدم اليه آخر فيحمله بيديه فوق كتفه وقد يطرحه من وراء ظهره للقوة ، وقد يمسك حزامه باسنانه ، ويرفعه على صدره دون ان يمسكه بيديه .

3 ـ لعبـة الخربقـة

هذه اللعبة تشبه الى حد بعيد الشطرنج وصورتها ان يتقابل اثنان يضعان بينهما على وجه الارض حفرا صغيرة في الرمل مقسمة الى سبعة سطور به سبعة حفر ، وجملة الحفر 49 تطمس الحفرة الوسطى لتكون منفذ اللاعبين وتعمر 48 الباقية انصافا . أى يعمر كل منهما 24 حفرة (بالكلاب) التي هي عبارة عن 24 من الاحجار البيضاء لأحدهما و 24 من بعر الابل ذات اللون الاسود للاخر ويتباريان والغالب منهما هو الذي يستطيع ان تاكل كلابه جميع كلاب رفيقه وتبقى بقية من كلابه .

وهذه لعبة مشهورة في البادية تعتمد التفكير الطويل والذكـاء كالشطرنج . ومن لاعبيها من يشتهر شهرة واسعة تتعدى قريته الى القرى المجاورة ويصبح مقصدا لفرسان هذه اللعبة .

4 ـ لعبـة الخيـط

يعمد العراسة الى وضع خيط رقيق لا يظهر للعين الا بعد التثبت في طريق القادمين فمن تنبه له مال الى الدخول من مكان آخر ومن لم يتنبه له ومر فوقه أو تعثر به حكم عليه بغرامة .

5 ـ لعبـة السـارق

يقوم جماعة من شبان العراسة بلعبة السارق وينقسمون عادة الى قسمين ، قسم يسرق حاجيات العريس ويدفعها للعروس فتتمسك بها حتى يدفع العريس فدية لحاجته المسروقة كالمنديل والحذاء والقسم الثاني يقوم بسرقة حاجيات العروس فيدفعها للعريس ولا تستطيع العروس ان تسترجعها الا بعد دفع فدية مقابلها . وقد يتفطن احد الفريقين لسارق من الفريق الآخر فتؤول القضية الى مطاردة عنيفة في شوارع القرية تنفجر من اجلها ينابيع من الضحك والقهقهة فاذا تمكنوا من القبض عليه اوقف امام محكمة (السلطان) او محكمة (السلطانة) فيصدر ضده حكم بالغرامة وقد يجلد ويضرب .

من اغـاني العـرس

قد ذكرنا سابقا نماذج من الاغاني التقليدية التي تغنيها النساء في مختلف حفلات العرس . ونذكر فيما يلي بعض الاغاني التقليدية التي لم نتعرض لها سابقا :

1) فمما يغنى في حفلة افتتاح العرس في اليوم الاول اثر اغنية الصلاة على النبي (ص) التي مر ذكرها ، تغني احدى قرائب العريس ما يلي :

هذا عرسك يا غالي يا زهو بالي

نحميه اذا راد العالي

هذا النهار اللي نبغيه

والقلـب شـاهيه

يجعل محمد حاضر فيه

هذا نهار اللي بغيته

ولحقت ريته

نلحق عروسه في بيته

والمعنى ـ هذا عرسك يا عزيز يا فرحة قلبي ، أحييه بالغناء اذا شاء ربي

ـ هذا اليوم الذي ارتقبه ويتمناه قلبي راجية ان تحضره بركة النبيء (ص)

ـ هذا اليوم الذي انتظره وقد عشت ورأيته ورأيت عروسا في بيته .

2) ومما يغنى في حفلة الحناء غير ما ذكرناه سابقا :

حنا قابسية جابوها العرب
فيدك يا لوخية تشعل بالذهب
حنينا الحناني وما زال الفتول
ربي يا لوخية يعطيك القبول
تعالوا فتلوها يامالي الدوار
قضاية الحوايج مبشرة بالجار

والمعنى : حناء مجلوبة من قابس جلبها العرب ظهرت في يدك لامعة كالذهب .

ـ زيناك بالحناء ولا تزال الزينة الاخرى (الفتول : التزيين) اعطاك الله ايتها الاخت القبول الحسن .

ـ تعالوا زينوها يا اهل الحي انها تقضي حوائج الناس وتفرح بالجار .

3) ومما يغنى عند قدوم جمل الهودج لرفعها الى بيت الزوجية :

حليلي أوخيتي جابو جملها
ظفروا رأسها وهدوا خجلها
فولوا لسيدها يعزم يسير
بنتك سارية فوق الحصير

والمعنى : يا ويلي لقد جلبوا جمل اختي وظفروا شعر راسها وتركوا خجلاتها منسابة على صدرها .
ـ قولوا لوالدها يأتي سريعا فابنتك جاهزة فوق الحصير (يعني انها على استعداد للرحيل الى زوجها)

4) ومما يغنى عند الخروج بها من بيتها نحو الهودج لركوبها :

أم الخواتم لماعة

والمعنى : لقد اخرجوا صاحبة الخواتم اللماعة (العروس) من بيتها تمشي في خيلاء بين جماعة من اترابها .

5) وفي اثناء المسير بهودج العروس نحو بيت الزوجية تغني صويحباتها بالاضافة الى ما ذكر سابقا :

الله يجعلك ولفي مبروكة على ولد سلفي

والمعنى : جعلك الله يا حبيبتي مباركة على ابن اخي زوجي (ولد سلفي)
فاذا كان العريس هو اخ الزوج يقلن (دار سلفي) بدل (ولد سلفي) وربما قلن : مبروكة على من تلقي .

6) وعند نزول العروس من الهودج ودخولها الى بيت الزوجية تغني صويحباتها :

يا حنة تم تمامك خضرا وراك وقدّمك

والمعنى : يا عزيزة لقد تم عرسك ، جعل الله الارض خضراء وراءك وامامك (كناية عن الحياة السعيدة) .

محمد المرزوقي

*
* *

مع شهرزاد

في الليلة الثانية بعد الألف

عبد القادر شرودة

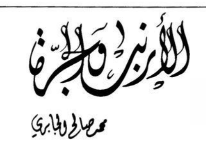
دفنـــاه والبندقيـــة
ولما كبرنا تشتت شمل القبيلة .
قالوا : نفض الوصيه
قرأنا : (انزل يا راس
واطلع يا بعبوص)
ركبوا جواده .
صليت حيث ثوى ،
كان ثمة زيتونة وشقيقه
وكان النجيل يفيض من القبر فيضا ،
ويـــأبـــى الابـــــاده
قطفـــت الشقيقـــة ،
اقحمت في كل فج جواده
وصليت حيث ثوى الطيبون
المحبـــــون
ماتوا لدى كل فج وواد ،
وكان النجيل يفيض من النسغ ،
يأبـــى الابـــاده .
وأدركت أنك رغم الذبائح ،
لما تزالي الضحية
ولا بد ان يتحقق ما في الوصيه .
فاما هجرناك مثل الخطاطيف .
حتى تعود الفصول الخصيبه
تركنا هنا خير وكر ،
وأغلـــى حبيبـــه .

وأما خطفناك من قبضة الريح ،
خفنا عليك من الموت في الكهف ،
قبل عبور الرياح السوافي .
واما عبرنا بك البحر
طالت بنا سنوات المنافي .
لنضرب اذن في الفيافي
ونرحل وراء السحاب ،
نلاحق فصل الخصوبه
أسيـدتـــي .
إن آتيك ناء
ولن تتنبأ هذي القوافي ،
سوى بالفصول الجديبه .
لقد سقطت من يدي في عبوري اليك . الشقيقه
فمن أين لي بالزهور النواسف ؟؟
ومن أين لي بالعواصف ؟؟؟
أنـــا مـــن تســـول ،
جـــاع
تكســـب
باعـــوه بيـــع العِبَـدَّى
وصـــرت خصيـــا ـ وحقــك ـ
أدهن جلدي بزيت القناديل ،
ألمـــع لمعـــا ،
وأجتر في العمق نار الحقيقه
أكلـــت الحشيش صغيـــرا
ولمـــا أجـــده كبيـــرا ،
فصـــرت إمـــام الجواعـــى
وأنكد من في الخليقه
كذا تترك النار بعد الخمود رمادا
ولن يتناسل زهر الفداء :

تقولين : (هون عليك ،
ففي الجوع ما من ملامه
وهذا « الغفاري » يوشك أن ينضي السيف
هذا الغفاري يسرج مهره) .
لكم مات ـ سيدتي ـ من غفاري
وحيدا هناك ،
تكدس شلوا على صدري تلك الصحاري
وفـــاض النجيـــل
وفاضت من العضم زهره
تغـــار الشقائـــق منهـــا ،
ولكنهـــم قطفوهـــا ،
فمن أين للزهر بالاحمر المتوهج ،
أيـــن الغفـــاري ؟؟
تقولين : (أقحم في البرق مهره
ودس بذور الصواعق في كل صبارة ،
لغم العرق من كل سدارة) ،
تقولين : شاهدته يفتح العين للشمس ،
يحـــرق فـــوديـــه
يفتح للريح صدره) ،
أقول : لعلك تحكين يا شهرزاد ،
فسيـــف الغفـــاري ، بيـــع
وأنفـــق سعـــره .
أسيدتـــي ،،
ما نبات النجيل كما كان يأبى الاباده
وكل الجواعى يلوكون خبز العباده
لنضرب اذن في الفيافي ،
فاني رفضت صلاة المجاعه ،
رفضت صلاة المجاعه ،

عبد القادر شروده

ديسمبر 1974



دعيت السنة الماضية لالقاء بعض المحاضرات بجامعة صوفيا ، دعوات كثيرة من جامعات مختلفة كانت تصلني باطراد وكنت اعتذر عن تلبيتها لسبب واحد ، وهو انني منذ ترملت خمدت في نفسي رغبة الترحل ، اصبت بشروخ عجزت الايام عن مد يد العافية اليها ، فاكتفيت بالجلوس الى مكتبتي والتطلع من الشرفة ، والانشغال بملاحقة الخيال والذكريات والانكفاء الى العزلة .

كنت أعزي النفس حين تتوق لمغريات حفلات الاستقبال وابهاء الفنادق الفاخرة ، ونظرات الاعجاب التي كانت تشملني اثر كل زيارة او محاضرة في بلد من البلدان : بان لكل شيء أوانا ، وقد حلت الآن الساعة المهيبة الفاصلة بين الممكن والواقع .

لكنني حين استلمت دعوة جامعة صوفيا في شهر سبتمبر مشفوعة برسالة كريمة من عميد كلية اللغات بها صديقي ديمتري النكوف لم أدر كيف لم أصنع بها ما كنت اصنعه ببقية الدعوات التي دأبت على ارفاقها ببطاقة شخصية موشاة بشتى كلمات الاعتذار المتأدب .

كل ما اعرفه هو أني نظرت فيها مليا ، وتأثرت بالجمل الناعمة التي أراد عميد الكلية أن ينفخ بها عبقريتي وجدي . ثم وضعتها أمامي على المكتب . وصباح مساء كانت الدعوة تقع بين اصابعي وامسك بالقلم لأخط كلمات الاعتذار عليها . ثم أجد نفسي فجأة مشغولا بأمر ما . كأن يرن جرس الهاتف أو تقدم الخادمة فتسر في أذني بخبر من الاخبار ، أو يستأثر عنوان كتاب جديد لم افتحه باهتمامي فأنصرف كليا عن أمر الدعوة .

ويظهر أن ديمتري النكوف الذي حق له أن يستغرب ابطائي في الرد على رسالة جامعته ـ خامره ظن في أن دعوته قد تكون اضاعت طريقها الى عنواني فأردفها برسالة ثانية حملها شتى عواطفه ، ودغدغ فيها مشاعري على طريقته التي اعتدت عليها ايام كنا طلابا بالجامعة . وقد حاول أن يثيرني على نحو شوش كل افكاري حين أهاج البراكين الخامدة .

وعلي أن أقول بشيء من الصدق الجارح : انه استطاع بالفعل أن يحرك اصابعي نحو القلم لأكتب اليه .. وأكتب مستجيبا . لكنني عوض أن أودع رسالته البريد كما تعودت أن افعل بكل الرسائل التي انجزها يوميا ، خططت العنوان عليها ووضعت طابع البريد بزاويتها العليا ، ورصفتها أمامي مع باقي الاوراق التي كنت اعتبرها في حالة انتظار . أفعل مثل هذا في القليل من الاحيان التي أكون فيها معلقا بين الحيرة والشك فأبرم الامر ثم انتظر الفرصة السانحة لجعله قيد التطبيق أو التراجع : طبع من الطباع التي كانت المرحومة زوجي تصر أن أتخلى عنها بلا طائل .

ولسوء الحظ وقع تطبيق هذا الجزاء القاسي على رسالة صديقي النكوف . فبعد أن حددت تاريخا للسفر ، جعلت الرسالة أمامي فيما اسميه العد التنازلي أملا أن تنقضي المدة فأبرأ من الوعد ، وأعود الى السيرة الاعتذارية . فلا أخل بذلك الوفاء للصديق ولو على الورق ، وأخلص لذكرى المرحومة التي عاهدتها أن أظل مستديما على حزنها الى الابد .

ولكن ماذا على المرء أن يفعل حين تكلف الخادمة نفسها مشقة ترتيب المكتب ، وتعثر على بعض الرسائل المعنونة فتحزم أمرها ، وتقرر أن تقوم بعمل بالغ الاهمية فتنزل تحت وابل من الامطار ، وتتطوع بالذهاب الى البريد لتخلص لمخدومها وتجنبه مشاق الذهاب بنفسه ؟

ماذا على المرء ان يفعل حين يواجه أمرا كهذا ؟

قالت الخادمة حين سألتها عن مصير الرسالة : (انها جمعت كل الرسائل منذ ثلاثة أيام واسقطتها بالبريد)

في شرفة المطار كان علي أن أواجه صلعته كقدر محتوم ، تبرق بين خيوط العرق وأشعة الشمس . بكلتا يديه لوح من بعيد حين أشرفت على سلم الطائرة .

عندما كنا طلابا دأب زملاؤنا على الصاق شتى نعوت المفاكهة بنا ، فاستقوا من تلازمنا معادلة رياضية عرفها جل الطلاب فأينما وجدنا اثرنا الضحك والابتسام وتناهى الى اسماعنا وصفهم ايانا : 1 + 1 = واحد .

فعدا الفوارق الاكيدة التي لا بد من وجودها بين الجنس الافريقي الذي تصر زوجي على أنني وثيق الامشاج به وبين جنس (سلافي) مخلوط من الطين والشمس وألوان مسيحية أخرى كالدم والخمر وزرقة البحار . فان هناك تشابها جمليا يقرب بين جسدينا ويتوئم افكارنا كالصلع المفرط ، وتراخي الاحناك ، والميل الى الانجذاب الى الارض بفعل بطون لنا أخذت تبرز في شكل محير استاء له مدير المطعم الجامعي .

لم أكد أصل أرض المطار حتى وجدته يقذف بنفسه بين احضاني . كرة هائلة من اللحم المحشو ببقايا عزيمة وصولة ، وينهال علي تقبيلا على طريقة الريفيين البلغار الذين تشعر اثر كل تبادل تحية معهم انهم غسلوا وجهك بشفاههم المبللة .

لم تترك لي مفاجأة ظهوره امامي مجالا لتبين الوسيلة التي دفعته من شرفة المطار الى الممرات السفلى ، وليس هناك الا تصور واحد هو انهم دحرجوه من هناك فوقع عند سلم الطائرة ، وهو ما ليس بمستغرب على جسمه ذي الطبيعة الكروية .

قال النكوف وهو يقدم لي ثلة من اساتذة قسم اللغات الشرقية اصطفوا لتحيتي :

ـ انني راهنت على قبولك الدعوة رغم انتظاري وانتظارهم الطويل ، ثم ونحن ننتحي ركنا في انتظار الانتهاء من الاجراءات القمرقية :

ـ أو فعلت الايام بك هكذا يا صديقي . أين عينيك ؟ غارتا بمثل هذه السهولة ، اعرف انك كنت تحب زوجتك كثيرا ، ولكن هذا لا يعني أن نموت في سبيلهن .

قلت له :

ـ لو لم تكن تعرف قصة الود العميق بيننا لاستجبت الى أن اشرح لك الامر .

قال النكوف وهو يتظاهر بالمواساة :

ـ النساء يا صديقي لسن شيئا كثيرا . ماتت زوجتي وانت تعرف الامر . وها أنـي اتـزوج سكريتيرتي . تعال سوف نجدها بسيارتي .

على اليمين اصر أن اركب وهو يقول مازحا :

ـ من الطبيعـي أن أكون على اليسـار في كل الحالات .

وحين أحب أن يرفع الكلفة بيني وبين زوجته التي وجدناها بانتظارنا ، وضع يده على يدها التي على المقود وهو يقول :

ـ هذه سائقتي وسكرتيرتي ، وزوجتي .
وبعد أن أمر يده على شعرها القصير الناعم أضاف :

ـ كان من حقها أن تتزوجني قبل اليوم بعشرين سنة على الاقل . لكن عليك أن تحكي لها صورا من شبابي .

وبمزاح رائق طفق يقول :

ـ لقد جئت بك شاهد اثبات لتؤكد لها بأنني كنت ذات يوم شابا . انها لا تصدق صوري . فالنساء لا يسارعن بتصديقك الا اذا كن متفوقات في السن والبشاعة .

قلت لصديقي وأنا أبارك نوقه :

ـ انك تستعيد شبابك . وتزرع في نفسي الثقة .

حين اشرفنا على مدخل المدينة ، رجا النكوف من زوجته أن تنحرف بنا صوب شارع ديمتروف . أو ينسى المرء كل تلك الابنية الصارمة والشـوارع

الواسعة التي تفرض نفسها عليك بمجرد النظر العابر ؟ أو ينسى المرء كل تلك الذكريات المضاعة على الارصفة هناك ؟

ان اول ما كنت أريد أن يقع بصري عليه مشهد المقصف الصغير الذي يرتكن الى جانب من شارع ديمتروف في زاوية تحد المبنى العالي للكاتدرائية القديمة لطالما شهد تسكعاتي والنكوف في امسيات البهجة والشجن حين كنت أقضي بعض أيام الصيف ضيفا على اسرتهم في أوبتي من الشرق أو رواحي الى الغرب .

ذلك المقصف كان من بين أهم المعالم التي كتبت عنها مطولا في رسالتي الى النكوف ، اذ كنت أحمل له بين جوانحي شوقا مستطيرا :

نادلته المحببة ماريا خازاريان الشابة الارمنية البهية التي طالما اثقلنا سمعها بكلمات الغزل ، وطالما تحرشنا بعواطفها على نحو داعر حين نجلب الصديقات الى حانها ، ونفعل معهن ما نظن الحياء التقليدي يتجاوزه .

لوحة الفلاح الذي يشق الارض بأصابعه العشرة مستخدما كل طاقته العضلية ليفتح له طريقا في الاتلام في غير ما حاجة الى المحراث والثور ، بعد أن حرموه كل عون ليقتلوا كبرياءه ويجبروه على التفريط في أرضه أو الموت جوعا . تنطلق النظرة الفزعة من عينيه لتتحول الى رعب مقيم في نفس كل اقطاعي تماما كما شاء الرسام ابراز الذي تجاوز الغضب المحدود الى الثورة الخالقة . حتى أن جورجي ديمتروف زعيم البلغار أذن بأن تعلق هذه اللوحة في كل الاماكن العامة ، وتصبح احدى المعاني المقدسة ، ومعلما وطنيا وثوريا .

أما اللوحة التي كنت أقول لماريا انها أجمل لوحات المقصف جميعها فهي اللوحة التي تمثل مشهدا خليعا لفتاة منطرحة على الرمل ورأس عشيقها بين فخذيها . وهي من اللوحات النادرة التي ظللت طوال حياتي استعيد تفاصيلها وأسلوبها التعبيري الشيق الذي تشنجت له اكثر من مرة وصحوت في احلامي على تقليد ما يجب أن يحدث في اطاره .

ولولا طابع الوقار الذي كان علي أن ابدو فيه بسمة الجامعي المتزمت لهرعت عدوا الى اللوحة التي ما تزال مثبتة في مكانها ، والقيت رأسي هناك ، ولبكيت بحرقة المغلوب على امره لتأتي بعد ذلك ماريا وتضع يدها على مقدمة صلعتي ، وهي تقول بلسان الماضي :

ــ مساكين الرجال ، انتم عاطفيون بشكل مريع . من قال ان النساء تساوين كل هذه الاحزان ؟

ان الذي لم أشك فيه لحظة واحدة في حياتي هو أن النكوف كانت له قدرة خارقة على النفاذ الى جمجمتي وقراءة افكاري على طريقة السحرة الهنود رفع كفا الى كف وسرعان ما أقبلت ، وباصبعه أشار الي وهو يقول :

ــ ماريا .. تفرسي ملامحه ، اذا كنت ما تزالين تعتدين بذاكرتك ! من بين تجاعيد كثيرة أحاطت بعينيها أطلقت ماريا نحوي سهما صدئا ، ورفعت أصابعها لترد خصلات شعرها الاشقر الذي عمه المشيب ، ولتقول بصوت غائر كمن ينقر على الخشب :

ــ لا تسيء بي الظن كثيرا يا (ادي) مر أناس كثيرون من هنا . هذا الرجل قد يكون من بينهم . ماريا لم تعد ماريا يا (ادي) أين نحن الآن ؟

وبصوت أجش دحرج النكوف كأسه صوبي وهو يقول :

ــ اشرب نخب النسيان . اشرب أيها الرفيق العزيز .

•

وأخذ ماريا من كتفها الايمن ، وجعل يسر في اذنيها بكلمات كنا نسمعها :

ــ (وليد) صديق (سنيجانا) . أو ثمة احد لا يذكر الغناء ، والرقص ، والدنيا ؟ بكل ثقلها نزلت ماريا على وجهي تطبع عليه القبل ، وهي تردد في فجيعة وحسرة :

ما كنت احسب أنك ستكبر الى هذا الحد . اصلع أيضا . لك الله ! وكالقرد الذي يتناول منشطا شديد التأثير أخذت ماريا تدور وتدور وهي ترفع كأسها عاليا وتضحك وتغني :

– آه لو تعلم سنيجانا . بالامس فقط مرت بي وتناولت عندي كأسا من (الفينو) أأنـت نلك الافريقي الذي جعلها لا تصحو من وجع قلبها طوال سنوات حياتها . من بعيد كان القطار الذي يشق مدينة (صوفيا) يدخل المحطة المواجهة للحانة ، ونزل الركاب منه واتجهوا نحو المداخل الارضية . وصفر الشرطي يحرس النظام الذي أوشـك أن يتخرم . ودفع النكوف كأسه وطلب لكلينا مزيدا من الشراب . بينما شرع وجهه المتغضن يمتلىء دما وصبى وهو يتفرس السكرتيرة الزوجة ويعمل على كسب الحياة من جديد .

وبعكس ما كان عليه النكوف من مرح وانتشاء ورغبة في امتلاك كل لحظة بدا لي ان زوجته كانت شديدة الاقتصاد في الكلام . تبتسم بمقدار وتفرج عن ساقيها بمقدار بعد أن اعتذرت عن تناول الشراب مكتفية بتدخينها المتواصل ، تلهب السجارة عقب الاخرى ، وكأن ازمة نفسية تنخر اعماقها . لعلها ترى أن زواجها بالنكوف الذي يفوقها بخمسة وعشرين سنة على الاقل هو احدى نكبات العصر الحديث : شعرها الاشقر الطويل الضارب الى لون الحناء . وعيناها الواسعتان جدا كاعـلان من اعلانات شركة بيع الرمال ... وصدرها الذي يتمرد على قواعده ويصر على الاندفاع تحت مشداته بكل ترفع واباء .

جميعها بان لي أنها تلعن صلعة النكوف وماضيه ومنصبه وسيارته . لقد كانت هناك صلاة صامتة يوقعها جمال (سفتلانا) تبدأ بلعن كلينا وتنتهي بلعن كلينا . ان المرء ليحس بالخزي الابدي عندما يتصور أن يدين كيدي النكوف تقعان على حلمتي (سفتلانا) وتمران بهما مرور اصابع الفـلاح الامي الذي يصر أن يعزف لحنا من الحان شتراوس على طرف بيانو من صنع صيني عتيق .

ان الانسانية يجب عليها أن تنتحر انتحارا فاجعا مذلا حين يحدث في احدى نقاط هذا العالم ان تتداخل شفتا النكوف بشفتي سفتلانا .

كنت بحكم عقليتي الاسلامية كثيرا ما اقول لالنكوف : (ان المعجزة لا تحدث مرتين) . وكان بحكم عقلية ماركسية عريقة يرد علي بهزء (ان المعجزات تحدث في كل لحظة) ومنذ أن جلسنا في مقصف (ماريا خازاريان) ، والنكوف يخزيني على نحو خافت . وهو يقول كلما رفع كأسه الى فمه ونظر في عيني سفتلانا :

– أما زلت تعتقد بأن المعجزة لا تحدث الا مرة واحدة ؟ أو ما زلت تؤمن بالحكمة ؟ فابتسم له اشفاقا ومحبة واجلالا لرأسه الذي يمر بملايين الحجج المنطقية العجيبة التي تستطيع أن تقنع فتاة في مثل جمال سفتلانا بالاقتران برجل في أخريات العمر .. في خريفه الذابل المقطوع .

آخر مرة كنت التقيت فيها بالنكوف كانت قبل خمس سنوات في معهـد الاستشـراق بمدينـة (فيينا) . دعينا في جملة نخبة من علماء اللغات السامية لتدارس وظيفـة الاستشراق في العصر الحاضر . ومنذ أن نزلنا في فندق واحد اصبحنا لا نفترق . آنذاك كنت اصطحبت معي زوجي . وكنت والنكوف والزوجة نقضي أوقات الفراغ بين التنزه في الحدائق العامة وبين التفرج على القصور الاثرية الرائعة . وفي الليل كثيرا ما نختم السهرة بحضور عرض من عروض دور الاوبـرا والموسيقـى السنفونية . او نذهب في القليل من ساعات الصحو والصفاء فنمكث بجوار نهر الراين نتملى جريانه الدائم .

الا ان النكوف الذي كان قد فقد زوجته حديثا ، كان يقطع من حين لآخر ارتباطه بنا لينفرد بنفسه أو يتسمر الى كرسي في احدى الحانات يشرب الى حد السكر . وفي بعض اللليالي كان يصحو من نومه في الساعات المتأخرة ويطرق علي باب غرفتي ويستأذن من زوجتي في اصطحابي الى نزهة أرق ... فكنا نقع بالحاح منه على أول ملهى ليلي حيث يروقه كثيرا مشهد الشابات المتعلقات بأذرع عشاقهن .

ثم تبين لي ان اندفاعاته تلك الى الانتقام من نفسه التي أرجعتها الى عوامل الحزن والآلام ، لم تكن بسبب فقده زوجته ، ولكنها كانت تكفيرا منه عن الايام التي قضاها طويلة معها الجمت فيها كل تحركاته . ففلسفة النكوف التي لم تكن تخفى على أحد من اصدقائه تقوم منذ بدئها على الحكمـة الشائعة بأن عبادة الجمال والجنس هي وحدها التي تحقق الخلود للانسان .

ولولا ايمانه بهما ايمانا ثابتا مؤزرا بالادلة لما اقدم النكوف على التزوج من تريشكو فابريارا .. تلك التي أضاع مهابته في اللهاث خلفها من شاطىء الى شاطىء ومن مرقص الى آخر حتى ظفر بها زوجة بعد أن تحايل عليها بشتى المواصفات التي تتطلبها المراة الطموحة الى الثراء والمجد والابهة .

عرفتها بعنويتها الطاغية وسحرها المؤثر في أيام زواجهما الاولى ، حين اصر علي أن أمر به وانا في طريقي الى جولة سياحية باسطنبول . كانت بحق مثلا لكمال الانوثة والاثارة . ولم يكن هناك أحد بكامل مدينة صوفيا وضواحيها لم يقع في حب تريشكوفا . أو لم يقتطع تذكرة للسفر الى شاطىء البحر الاسود للتفرج على الرائعة التي وهبها الله لاهل صوفيا جميعا ، وهي تتعرى أمام آلاف العيون الفضولية .. هذه المرأة الشامخة الدافقة بالسحر والانفة والتي يعزى اليها الكثير من المخالفات الزوجية وقضايا الطلاق .

وعندما روى لي النكوف بان مدير شرطة مدينة صوفيا اضطر في ليلة حفل زواجه الى انزال عدد اضافي من أعوانه لم استغرب ذلك منه ، لاني كنت على يقين جازم من أن نصف سكان صوفيا سوف يحزنهم النبأ .. والنصف الآخر منهم سوف يسر لوقوع اللبؤة بين براثن الاسد الاصلع . وأن يوم نهاية المشاكل ذاك سيكون يوما عاصفا دونما ريب .

لكن عشر سنوات فقط مرت على زواجهما كانت كافية لوضع نهاية لحياة تريشكوفا . ماتت على اثر نوبة قلبية تحت سمع وبصر البشرية جمعاء التي رأت شجرة الخلود تنبل وتصفر ورقة ورقة ، ويمتد النحول الى قامتها التي قيل ان نسخة واحدة خلقت منها ، ولن يتكرر ذلك على مدى آلاف السنين .

وفي جنازة باهتة لم يمش خلف جثمان تريشكوفا غير زوجها وأقربائها وحفنة من الذين ظلوا يحتفظون ببعض الذكريات عن شبابها ، ومعظمهم من الفنانين والسكيرين والافاقين . وفي اثناء المحنة القاتلة التي مرت بحياة تريشكوفا كان النكوف يلعب الورقة البارعة مع السكرتيرة الشابة .

ولعل بعض من يعزو موتها للحسرة التي اصابتها حين علمت بهذه العلاقة لم يكن مخطئا على الاطلاق . فقد تمنيت أن أرى النكوف في (فيينا) أشد تأثرا عليها . ولكنني رأيته يلعن القوانين التي تقسم الرجل على أن لا يتزوج بثانية الا بعد أن يتفضل عليه الموت بزيارة خاطفة الى بيته ويسحب منه المراة المقيمة على صدره . ولا أكتم أنني تضايقت كثيرا لهمود شعلة الجمال الباهر . وعراني أسى شجي لهذا التنكر الذي رأيت عليه النكوف . مثلما لمحت على النكوف استياء خفيا لكل ذلك الاجلال الذي يجمع بيني وبين زوجتي .

لكننا لم ننشأ أن نمس علاقتنا الوطيدة الحميمة : فلكل أهواء ومآرب .

* * *

بمجرد أن جمعتنا أولى الجلسات في مكتبه بمبنى الجامعة ، أصر النكوف على أن يترك لي حرية اختيار الموضوعات التي أحب خوضها في المحاضرات المزمع القاؤها على طلبته بالجامعة . لكنه التمس مني تأجيل المحاضرة الرئيسية التي اقترحتها دعوته . وموضوعها (مسائل العشق عند العرب) لان من رأيه أن تكون هذه المحاضرة الشاملة خاتمة المحاضرات ويحسن القاؤها على مسرح دار الاوبرا أكبر مسارح مدينة صوفيا وأجملها . وهو مسرح لا يبدو من السهل تسخيره الا في الحالات النادرة .

ويجب أن اعتبر بأن مجرد وضع اسمي بقائمة من حاضروا بهذه الدار هو تشريف جليل ، لا بد أن النكوف بذل جهدا خارقا للوصول الى نتيجة ايجابية بشأنه . اذ كان الوصول الى اعتلاء هذا المسرح ، ومخاطبة الناس من فوقه لا يقل اهمية عن الوصول الى كرسي هام باحدى الوزارات ، لذلك جعلت أكرس أوقات فراغي طيلة أيام اقامتي لتركيز أفكاري استعدادا لذلك اليوم .

ساد السكون شاملا مهيمنا .

كان الجميع يتهيأون للانصات ، وكانوا يرون أمامهم شبحا أصلع تكتنفه الاضواء من كل الجوانب ، مترهل الوجه ، مشرق العينين تزيد من الهالة حوله تلك الكلمات المستفاضة التي قدمه بها مدير دار الاوبرا .. فجعل القوم في شوق لكل ما سيصدر عنه .

ولم يكن امامي غير مذكرة صغيرة ، كنت أريد أن اجعلها مساعفي عند المحاضرة ، لكنني لم أجد على هذه الورقة غير كلمتين لا غير : الارنب والجرة .

وعندما يقال أن الظروف تخلق المستحيلات ، قد لا يكون ذلك من قبيل التطاول على المصاعب فقط ، وانما يصدق هذا القول بالدرجة الاولى على تلك اللحظات المفاجئة التي انكفأت فيهـا الـرؤوس والعيون دفعة واحدة الى الوراء اثر هرج طفيف طرأ بالباب . حمدت الله لانها المتنفس . فوضعـت اصبعا على الورقة وأنا أردد بيني وبين نفسي : الارنب والجرة .

ولو أن أحدا اطلع على هذين الاسمين مقترنين الى جانب بعضهما لاصيب بدهشة عارمة . ذلك أن أي عقل في هذا الكون لا يمكن له أن يتقبل محاضرة تحمل عنوان : (الارنب .. والجرة)

هناك بالباب امرأة شابة ، فارعة القـوام ، سوداء العينين . ربطت شعرها (بفولار) أصفر منقط . وارتدت قميصا من الصوف ذي ياقة عالية تحت فستانها الذي بدا بلا اكمام . كانت هذه الشابة بهيبتها وهيئتها ترتكب هفوة قانونية . اذ داهمت كل الحرس ، وأحدثت هرجا ، وأبت الا أن تحضر المحاضرة .

تطلعت من خلال الاضواء التي كانت تعشو بصري . فزعت لمرأى المرأة . كدت أصيح بهم اتركوها تقترب مني ، فهي زوجتي . لقد كان هناك دونما شك شبه غريب بينها وبين المرحومة طولا وهيئة وجمالا . لكنني لاحظت أن الصمت سرعان ما عاد الى موضعه ، وأن الشرطة احتجزتها لتقتعد آخر كرسي . شوش الحادث أفكاري . وخرم ذلك الصمت الذي قبع في أعماقي . واختفت جميع الوجوه التي كنت أراها بالقاعة ، ولم أعد أبصر أمامي غير وجه تلك المرأة التي كانت تشبه (نجمة) .

واذا لم اكن مبتدعا لنوع جديد من الخيال فانني استطيع القول بثبات بأن تلك المرأة ابتسمت لي وحيتني بنفس الطريقة التي كانت زوجتي تحييني بها في سالف المحاضرات التي كانت تحضرها . وأنها حدثتني بصوت مسموع قائلة :

ـ شعرت أنك ستتحدث عن الارنب والجرة فجئت اليك . وكما تعلم فهو الموضوع الذي يعنيني .

قلت اعلن للجميـع : ليسمـح لي السـادة الافاضل . وكذلك الاوانس والسيدات بان ابـدأ محاضرتي بقصة الارنب والجرة . فهناك من بينكم من يريد الاستماع اليها . وهناك من بينكم من يجب أن أقصها عليه .

لاحظت ان امارات الفضول بدأت تنقشع عن الوجوه . وحل التساؤل بديلا : فما معنى الارنب ؟ وما معنى الجرة ؟

فتيات في آخر القاعة وضعن ايديهن على افواههن دهشا ، وأخفين ابتسامـة سخريـة كانـت على شفاههن .

قلت بصوت يغلب عليه الوجيب والتأثر :

ـ ثمة حكمة شعبية تنصح المرأة التي تغادر بيت حبيبها لآخر مرة ، تنصحها بان تصنع ارنبا من القماش ، لها أذنان طويلتان ، وعينان واسعتان ، وفم مزموم كفم الارنب . وعلى الرفوف البارزة تضع تلك الارنب .. ولا بد من جرة مصنوعة من الطين .

صمت هنيهة من الوقت قبل ان اضيف :

ـ لا احد يعلم مقاصد هذه الحكمة . لكن جميع العشاق يحتفظون بهذه الارانب المحشوة ، وبتلك الجرار الصغيرة .. وهم انما يفعلون ذلك لطبيعة فيهم تستنكر كل تصرف خائن ، وتشجب عمل اولائك الذين يحاولون بتر ظلال العلاقات العاطفية خجلا من الابناء .

ان آلاف المحبين يصعدون الزفرات من قلوبهم حارة كلما شاهدوا هذه الارانب . وآلاف العشاق يقدسون هذه الحيوانات الصغيرة فيتمسحون عليها بحرمة .

ظل جو القاعة طيلة المحاضرة يزداد صمتـا وفضولا . وكلما توغلت في الشرح والاطناب ، كانت عيون الحاضرين تبدو أكثر تطلعا . فتحدثت عن المجانين الذين يزخر بهم تراثنا وتاريخنا . ولكنني عندما وصلت الى تركيز معنى المحاضرة حول ما كنت اعتقده : (بان الرجال في كل العصور يحبون بعنف وشغف ، على خلاف النسوة اللائي اشتهرن بالتقلب والمداجاة) هبت نذر العواصف على كل وجـوه الحاضرات ، وفي مقدمتهن شبيهة زوجتي التـي وقفت تصرخ محتجة ، وتقول كلاما طغى عليـه الهياج فلم أتبين فيه شيئا .

وشد من أزر تبجحها ذلك التأييد المطلق الذي وجدته من جميعهن . ولتأكيد الاحتجاج رأيت أكثرهن تبارحن القاعة في سكون وانفعال على أن الارتياح عم كل الرجال عدا (النكوف) الذي بدا له أن تقريري بأن الرجال يحبون دوما بعمق هو تقرير مليء بالمغالطات . فالرجال من وجهة نظره ـ ليس على أي منهم أن يكون الضحية مهما غلا الشأن .

وما أن انهيت المحاضرة حتى تلقيت اولى قبلات المجاملة من (سنيجانا) التي يمكن ان اصف موقفها بانه كان موقفا حياديا للغاية . فهي منذ خمدت أوجاع قلبها ـ كما كانت تنعت الحب ـ لم يعد يهمها من هذا الموضوع سوى الحفاظ على الذكريات الغائرة التي ظلت تطرق خيالها .

حادثة ظهور شبيهة زوجتي هزت كياني وارجفته . وكلما عدت الى اثارتها مع (النكوف) كان بأسلوبه الساحر يرفع كف زوجته ويضعه على جبيني وهو يقول لها :

ـ كم تبلغ درجة حرارته الآن يا جوليانا .

وببرودة الانثى المخدوعة تقوم الزوجة بجس اطراف جبهتي ، وتنجدني بالدواء ، وتصر على أن اتجرعه في الحين .

وبين اتهامي لمداركي وبين سخرية النكوف مني ، أخذت صورة المرأة تشحب من ذاكرتي .. وكاد كل شيء يضيع لولا الليلة الاخيرة .

ثمة فرقة موسيقية تقودها العازفة البارعة (ايرينا أخمانوفا) ينسجم لباسها الرسمي والطابع الاكاديمي الذي تحرص الجامعة على طبع طلابها به .

واذا كان لبعض الليالي أن تنعت بليالي العمر ، فان هذا الوصف ينطبق انطباقا صادقا على ذلك الجو المترع بالعواطف والحيوية والموسيقى والنشوة .

وبين المدعوين وقفت والنكوف نستقبل الجميع ، ونتبادل اطراف الحديث مع بعض أصدقائنا القدامى .

كان النكوف قد قرر أن تختم زيارتي بليلة راقصة ، نحيي فيها ذلك العهد السعيد من ذكريات الشباب . وأصر على أن يدعو لها بعض شباب الجامعة ، والاساتذة ، وصفوة المرموقين في الوسط العلمي والثقافي .

وثمة باقات الورود التي تحف بالطاولات التي رصفت عليها أنواع المأكولات والغلال ، والمرطبات ، والمشروبات . وفي الوسط حلبة تتسع لكل الحاضرين فيما لو شاؤوا أن يرقصوا .

تقتضي التقاليد أن أكون أول من يقود خطاه الى الحلبة متأبطا ذراع احداهن ، ولتشجيعي على القيام بمثل هذا العمل الذي مر على آخر ذكرى لي معه سنوات ماضيات ، أشار النكوف الي وهو يصفق محرضا . وبينما كنت اقنع نفسي بمسايرة هذه التقاليد الراسخة وجدت يدا تنحط فوق كفي . وتلتف اليد الاخرى حول خصري .

وما ان فتحت عيني وانا احاول الموازنة بين الايقاع والخطى حتى كدت أصرخ بملء حنجرتي : انها تعود مرة ثانية .

لم اكن امتلك زمام نفسي لأفعل ما ينبغي فعله في مثل هذه الحال ، لكنني حين أخذت استفيق من الصدمة التي عرتني شعرت بان الحلبة من حولي قد اتسعت للجميع ، وان كل الناس اصبحوا في شغل عني .

اردت ان افتح فمي بالكلام لاجانبها اطراف الحديث . لكن عينيها المشرعتين في وجهي بدهشة وامتقاع كانتا كانما تحذراني من مغبة الكلام . فاكتفيت بلمسات اطراف اصابعها التي اخذت تحفر في كتفي ، وتغوص في عظامي ... وعبقت رائحة شعرها في أنفي فألقيت بكل ثقلي على جانب منها .

كانت الشموع المتراقصة تلقي ظلالها باهتة على وجهها الضارب الى الحمرة الخجول بلمسات الماكياج الخفيفة التي صيرتها أشبه بوجوه الغجر . وكتفاها العاريان يتألقان في نصاعة جيدها الذي ظهر مستقيما تحت شعرها المصفف بأناقة ودقة .

قلت في نفسي وأنا ما زلت احلم بزوجتي القديمة العائدة : كيف جاءت على هذا النحـو الرائـع المفاجيء .

وبمجرد ان انتهت الرقصات الثلاث ، واشرابت الاعناق نحو الموائد من جديد انسللت لآتي بكأسها الذي تركته على جانب من المائدة . وعندما استدرت لابحث عنها وجدت النكوف الى جانبي يقدم لي احد

الضيوف جاء يعتذر عن التأخير .
ثم لم أر المرأة بعد ذلك طالما بحثت عنها حتى آخر السهرة .

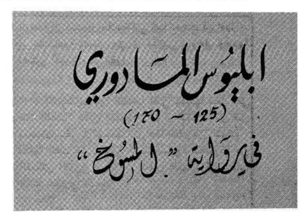
ومن الغد عندما امتطيت الطائرة لم استطع أن اتخلص من وجهها . وكل ما استطعت ان افعل هو اني اصطبرت على القصة فلم أروها مرة أخرى لالنكوف خوفا من أن يتهمني بالجنون .

وفي منزلي وبينما كنت أتفرغ بعد وصولي من الرحلة الى تسجيل ملاحظاتي كما تعودت أن أفعل ، اذ بالخادمة تدخل علي في مكتبي ، وعلى وجهها دهشة الخدم وهي تقول :

ــ لقد عثرت بين الهدايا التي جلبتها معك على هذه اللعب . فأين اضعها ؟ لم أر الخادمة من قبل تستخدم معي في لهجتها مثل هذا القدر من التهكم . لكنها القت على مكتبي ارنبا صغيرة مصنوعة من القماش الازرق وجرة من الطين عليها تزاويق ذات طابع بلغاري صميم .

وفتحت عيني من شدة المفاجأة لانني لم اضع هذه الهدايا بين ما كان لي من ادباش . وبينما كنت اقلب الجرة ، اذ ظهرت بطاقة صغيرة كتب على ظاهرها : أشكرك على اختياري لافتتاح حفلـة الرقص .

ــ محمد الصالح الجابري ــ



القسم الثاني :

ترجمة عينات من « المسوخ »

في العدد الثالث من « الحياة الثقافية » — اكتوبر 1975 — نشرنا القسم الاول من هذه الدراسة ، وفيه تعرض الكاتبان الى حياة ابليوس وآثاره وقيمته الأدبية .

تمهيد للترجمة العربية

وضع ابليوس روايته باللغة اللاتينية في احد عشر كتابا ، تتخللها قصة مطولة تبدو لا علاقة لها بالمحور الاساسي في الرواية — شانها شان بعض القصص الاخرى التي احتوتها الرواية — هي قصة « بسيشي » (Psyché) التي شغلت حيزا من الكتاب الرابع وكل الكتاب الخامس وجزءا من الكتاب السادس .

وقد نقل الكتاب من اللاتينية الى الفرنسية في اكثر من ترجمة نذكر منها خاصة ترجمة «هنري كلوارد » (H. Clouard) وترجمة « م . ف . بتولارد » (M. V. Betolard) وترجمة « بول فالـلات » (P. Vallette) وقد وجدنا هذه الترجمة الاخيرة اكثر من غيرها امانة ومحاولة تدقيق . فهي من الترجمات المتاخرة — اذ نشرت بين سنتي 1940 و 1945 ، وقد حاول صاحبها — والحقيقة انه وضعها بالاشتراك مع « د . س . روبرتسون » (Robertton) « D. S. » الذي ضبط النص اللاتيني وحقق مصادره ومخطوطاته بالمقارنة والتمحيص والبحث الدقيق — ان يجعل منها ترجمة اشمل واعمق وادق من غيرها ، اذ انه تلافى ما وقع في الترجمات السابقة — سواء بالفرنسية او غيرها من اللغات — من الاخطاء — وذلك زيادة على أن « فالـلات » — وكذلك « روبرتشون » من المتخصصين في الآداب اللاتينية وقاما بدراسات عدة في ابليوس وآثاره ، واطلعا على اغلب ما كتب عن ابليوس في مختلف اللغات وذلك ما تؤكده قائمة الاعلام الذين تناولوا ابليوس بالحديث واثبتوا في آخر المقدمة الثانية — لهذه الترجمة الفرنسية — التي وضعها « روبرستون » وقد تضمنت هذه الترجمة الفرنسية النصين الفرنسي المترجم واللاتيني المنقول . كما ان هذه الترجمة قد قسمت الى وحدات معنوية — وكذلك النص اللاتيني — لزيادة الايضاح والتدقيق والتفصيل . وقد نشر الاثر كله في ثلاثة اجزاء قسمت الى عشرين وثلاثمائة وحدة معنوية ، عدا ما يتخللها من قصة « بسيشي » المطولة ، كما اشرنا آنفا .

وقد حاولنا نحن بدورنا ان تكون ترجمتنا العربية لبعض النصوص من هذه الرواية دقيقة مضبوطة . فنحن اذن سوف لا نترجم الاثر كله وقد قمنا بترجمة معظمه — انما سنقدم عينات منه للقارىء العربي لابراز ميزات ابليوس القصصية وطريقه في الكتابة . وسيجد القارىء فيما يلي

بداية الرواية(من الكتاب الاول حسب تقسيم ابليوس) وبداية المسوخ (من الكتاب الثالث) . وقد اعتمدنا في ترجمتنا هذه الترجمة الفرنسية التي وضعها « فاللات » .

الا اننا لا نريد ان نخفي عن القارىء ما اعترضنا من مشاكل ــ وهي كثيرة ــ اثناء قيامنا بهذه الترجمة . ولعل اهمها ما ذكره « فاللات » نفسه في آخر مقدمته للترجمة الفرنسية المعتمدة ، اذ ذكر ما يعتري المترجم من عزوف عن الاقدام على ترجمة ابليوس ، وما يجد من حرج كبير اثناء نقل النص اللاتيني الى الفرنسية ، وذلك لاسباب كثيرة تتعلق باسلوب ابليوس وطريقته في الكتابة وتشعب افكاره . فما بالك نحن لا ننقل النص عن اصله ، بل عن نص هو نفسه نقل وذلك ما يجعلنا منذ البداية لا ندعي الكمال في هذه الترجمة التي وضعناها او في بحثنا حول ابليوس عامة . ولعل ذلك كله مرتبط بالصعوبة الثانية ــ وهي لا تقل اهمية وحدة عن الاولى ــ وهي قلة المصادر التي اردنا الاعتماد عليها . فالبعض الموجود منها كاد يستحيل التحصل عليه والعمل به ، فهو زيادة على ندرته يكاد ينعدم في المكتبة التونسية وقد راينا انه من الصعب التحصيل عليه والعمل به اما لانه خارج المكتبة عند بعض القراء والباحثين اولا يمكن العمل به الا داخل المكتبة للخوف عليه من التلف . وقد كلفنا ذلك ما كلفنا من عناء البحث والتنقيب والمراجعة والضبط (*)

* * *

أ ــ الكتاب الاول : (34) الرحلة الى « تسالي »

1 ــ تمهيد :

أريد في هذا الحديث المليسي ان اسمعك جملة من الحكايات المختلفة وان اداعب اذنك العطوف بهمس رقيق ، ان كنت لا تألف من نظرة تلقيها عيناك على رق بردى مصرية مكسو كتابة قد زادها قصب النيل وضوحا فسترى آنئذ باندهاش مخلوقات بشرية تتحول عن شكلها الآدمي ومنزلتها البشرية لتأخذ صورة أخرى . ثم تتبدل صورتها في نسق معاكس الى ما كانت عليه اذن أبداً : من هنا ؟ اذكر لك ذلك في كلمتين وجيزتين : انا يوناني « فالهيمات » (Hymette) (35) اللاتينية و « الايتم » (Isthme) الايفيرية (36) و « التنار » (Tenarre) الاسبرطية تلك الاراضي السعيدة المباركة المنيعة على الزمن بمآثرها هي المهدالقديم لاجدادي . هنالك كانت اللغة اللاتينية واول طفل اول اسلحتي .ثم حاولت في مدينة « اللاتين » وأنا الغريب المبتدىء في العلم ان ادرس واستوعب لغة « الكريتين » (37) ، وقد لقيت في ذلك عناء وجهدا : فلا معلم لي يرشدني . واني لارجو مسبقا ، المعذرة ان اخطأت وأنا استعمل هذه اللغة الاجنبية عني ولا ازال مبتدئا فيها . وعلى كل فالترجمة من لهجة الى اخرى تتماشى مع ما اريد القيام به وتبليغه ولو كلفني نلك مجهودا بلهوانيا لصعوبته . وان القصة التي سأرويها اليك من اليونان مصدرها . فانتبه اليها أيها القارىء ولا تسأم :

2 ــ كنت في طريقي الى « تسالي » ، اذ أن نسب أهلي من جهة والدتي يعود اليها ، وقد انجبت هذه الاسرة فيها من المشاهير من تفتخر بهم وتعتز أمثال « بلوتارك » (39) وابن أخيه الفيلسوف « سكتوس » (40) .

كنت اذن في طريقي الى « تسالي » لبعض شؤوني فاجتزت مرتفعات وعرة وأودية منداة ومراعي نضرة مزدهية وسهولا حروثا . وكان الجواد الذي يحملني من نفس الموضع ، أبيض اللون ناصعا . وكان منهكا مما سار بي ، وكنت متعبا مثله مما بقيت على صهوته . فاردت الترجل علي أجد فيه راحة ونشاطا . وفعلا ترجلت في قفزة واحدة . وجعلت أمسح عن جوادي العرق المتصبب عليه باوراق الشجر وأدلك هامته برفق وأمر بيدي على أذنيه وأجذب عنه الخطام . وجعلت ادفعه على التقدم ببطء . بعض الخطى ، واخلص اسفله من احراج السرج بما اعتيد من طرق حتى امكنه من ازالة تعبه . وبينما كانت دابتي ــ اثناء السير ــ خافضة عنقها منصرفة الى التقاط بعض الحشائش على المراعي الممتدة ، إذ بالريح تحمل الي ضحكات

مسافرين كانا يتقدمانني بعض الشيء ، فانضممت اليهما . واذ رآني أحدهما اصرف اليهما السمع كي اتبين موضوع تحاورهما ، اتجه الي في موجة من الضحك قائلا : « جد علينا ببعض الاكاذيب الهائلة اللامعقولة » . عندئـذ ناشدتـه رغبـة منـي ــ كالعادة ــ في الاطلاع على كل حديث قائلا : أخبرني اولا عما تتحدثان . ولا تظنا ان ذلك لفضول في ، بل لاني طلعة اريد معرفة كل شيء او جله على الاقل . ولا يخفى ما للقصة الممتعة الشيقة من دور في تذليل مصاعب الطريق الوعرة التي سنسلك » .

3 ــ عندئذ واصل الاول قائلا : « نعم ، اكاذيب وما ادراك من اكاذيب تبدو حقيقة ، كحقيقة من يزعم انه بمجرد الهمس بكلمات سحرية يستطيع تحويل مجاري الانهار المندفعة ، من مصابها الى منابعها ، وان يقيد البحر ويسكنه ويخمد عتو الرياح ويعطل سبح الشمس في فلكها وينزل من القمر الندى وينتزع النجوم من مناطها ويقضي على النهار ويوقف الليل عن مجراه » .

عندئذ قلت بلهجة اكثر اتزانا : « انت يا من أثار هذا الحديث ، لا اظنك تسمح بقطعه ، كما لا اظنك ترفض ان تروي لنا حكايتها حتى نهايتها » . ثم واصلت متوجها الى الآخر ، « أما أنت ، أمتأكد من أن عنادك في تشبثك بآرائك لا يصم أذنيك وادراكك عن سماع قصة قد حدثت في الواقع ؟ عجبا انك لم تدرك من الموضوع شيئا . فالخطأ والحكم المسبق هما اللذان يجعلان ما لم نعتده ولم نكن على استعداد لقبوله كذبا في كل ما يبدو متجاوزا على الاقل الذكاء العادي . وان مجرد تفحص دقيق بعض الدقـة ليقنعك بان مثل هذه الوقائع المروية ليست حقيقية بديهية فحسب ، بل ممكنة الوقوع » .

4 ــ « فقد حدث لي أنا مثلا ، البارحة ، عندما كنت على مائدة صحبة رفقة لي ، ان اردت الوقوف في وجههم متحديا ، فحاولت جهدي ازدراد قطعة كبيرة من الحلوى ممزوجة جبنا ، قد اعماني شرهـي وعنادي عن تقدير حجمها . ولقد كدت افقد الحياة غصا ، اذ تعطل عجينها اللزج الرخو في حنجرتي ، سادا علي مجاري التنفس . (ولك ان تقارن ذلك بما وقع) (41) ذات يوم لاحد المشعوذين ، فقد رأيته بعينـي هاتيـن في رواق « البواسيـل » (Poecile) (42) يبتلع سيفا قاطعا من نبابته ، وما ان تشجع ببعض القطع النقدية حتى عمد الى غرز حرابة صيد في احشائه من طرفها الحاد القاتل . ثم فوجئنا بشاب ذي جمال انوثي يعتلي مقبض الحرابة ويستقر على الزج (43) منه قائما بحركات عجيبة غاية في المرونة والليـن . فكأن جسمه ، لخفته في التلوي ، قد جرد من عظامه . وقد تملك كل الحاضرين الانبهار حتى خلناه الحية النبيلة تتلوب على العصا المعقدة التي كان يمسك بها الاله الكريم « ايسكولاب » (44) . والان ، حدثني ، ارجوك ، وواصل ما انقطع من حكايتك التي كنت بدأتها ، اني مصدقك في كل ما تروي ، واعدك بان تقاسمني طعامي في اول خان ننزل ، انها لجائزة تنتظرك » .

5 ــ أجاب : « اني لمتن لما وعدت . وها أنذا أواصل الحكاية التي كنت شرعت فيها ، لكن أريد أولا أن أقسم بهذه الشمس المقدسة التي تحيط بكل شيء علما ، ان ما ساقصه حق كله . وستلمسون بأنفسكم صحة ما أروي عند ما نصل أقرب مدينة الينا في « تسالي » حيث وقعت احداث هذه القصة في وضح النهار ، وهي لا تزال الموضوع الغالب على كل أحاديث هذه المدينة . لكن لتعرفا أولا من أنا ومن أين ؟ أنا أدعى « ارسطومان » (Aristomane) أصيل مدينة « أجيوم » (45) ولتعلما كذلك ما هو مورد رزقي . فأنا تاجر عسل وجبن وبعض المبيعات الاخرى من نفس النوع الذي يقبل عليه أصحاب الخانات . أسعى ببضائعي في الارض العريضة الواسعـة في كل صوب ، من « تسـالي » الى « ايتولي » (46) الى بيوسيه (47) وذات مرة علمت ان في « هيبطه » (Hypata) أكبـر مدن « تسالي » ــ نوعا جيدا من الجبن معروضا للبيع بثمن مريح ، فسعيت لحيني لأشتري كل ما تبقى منه . لكن مسعاي لم يكن موفقا ، وحرمت مما كنت آمل من غنم ، فقد حدث بارحة ذلك اليوم ان أحتكر تاجر الجملة « لويس » كل ما تبقى منه .

6 ــ ثم ساقني الفشل في حلمي الذي لم يتحقق ، عند الاصيل ، الى مبنى حمامات المدينة . ومن تراني وجدت هنالك ؟ صديقي سقراط . كان جالسا ارضا ، وكانت عباءته بالية مهترئة تغطي البعض منه . كان معفر الجلد بالتراب ، متغير الشكل ، حائل الصورة لشدة ما أصابه من الهزال ، شبيها بمن حطمتهم الحياة فتركتهم يسعون في مفترقات الطرق سائلين بعض النقود ... حتى أني ترددت في الاقتراب منه لما شاهدته على هذه الحالة رغم ما بيننا من متين المودة ، ورغم معرفتي الجيدة له ، خاطبته

قائلا : « بالشفاء يا سقراط صديقي ؟ ماذا أرى ما هذا المشهد ؟ ما هذه المسكنة ؟ وان اهلك ليعتقدون أنك قد همت ، وانهم ليبكونك كما يبكى من فارق الحياة . ولقد حرم بنوك ممن يقوم عليهم ، بأمر من قضاة البلدة (48) اما زوجتك فقد اضطرها اهلها الى ابعاد الكآبة عن مسكنها الحزين ، بلذات زواج جديد ، بعد ان قامت بكل واجباتها الاخيرة نحوك ، وانصرفت طويلا الى الحداد والغم ، حتى اصبحت عيناها مهددتين بالتلف لكثرة ما انقطعت الى البكاء . وها أنت ذا في هذا الموضع وعلى هذه الحالة المخزية التي لا تشرفنا ، تبدو لي وكان قبرا قذفك » .

عندئذ أجابني : « من الجلي يا ارسطومان ، انك تجهل تقلبات الحظ الخداعة ، ومفاجآته وانقلاباته المباغتة » . وقد عمد — اثناء حديثه — الى اخفاء وجهه المحمر خجلا ، بثوبه البالي المرقع ، فتعرى بذلك ما تبقى من جسمه . واذ لم أستطع صبرا على تحمل مثل هذا المنظر التعس ، مددت له يدي محاولا جهدي أن انهضه .

7 — الا انه ظل كما هو ، وراسه مغطى ، وجعل يقول : « دعني دعني على ما أنا وليبتهج الحظ كما يحلو له بغنمه ويشاهد هذا النصب الذي أقامه لنفسه » .

ونجحت في جذبه وستره في عجلة ، بأحد البردين اللذين كنت أرتديهما . وأخذته لتوه الى الحمام ، وبنفسي احضرت له لوازم الاستحمام من صابون ومناشف . وجعلت أدلكه بقوة حتى ازلت عن جسمه ما اطبق عليه من قذارة . ثم حملته الى الخان الذي أنزل ، بعد ان تمت نظافته . وكنت أجد مشقة وعناء في حمله اذ كان لا يستطيع ان يتماسك وكنت أنا نفسي منهكا . واعددت له في الخان سريرا ليستعيد عليه قواه . واطعمته من جوع وسقيته ما أشفى غليله واطلق أساريره . وقصصت عليه من الحكايات ما هدأ من روعه . حتى انطلق في حديث ومزح وجعل يتفيهق (49) في الكلام لكن سرعان ما انطلقت من صدره آهة ينفطر لها القلب ، ضاربا جبينه بعنف ، وصرخ : « يا للتعاسة » ان رغبتي الملحاحة في مشاهدة نزال بين مصارعين يحترفان الجلاد (50) هي التي أوقعتني في هذا النكس ، وسوء الطالع ، انك لتعلم أني ذهبت الى « مقدونيا » (Macédoine) في تجارة لي . وبعد مجهود تواصل تسعة اشهر توافرت اثناءها ارباحي ، اقفلت راجعا وقد عقدت العزم على مشاهدة ذلك الصراع الذي سيتم بـ « لاريسا » (51) الواقعة على طريق عودتي) .

وبينما كنت اجتاز مضيقا بين الجبال قد تباعد عن العمران ، وقبيل وصولي الى مدينة « لاريسا » طلع علي جماعة من قطاع الطرق فظاظ مرعبين قد نجوت منهم بعد ان سلبوني كل ما امتلك . واضطرت للحالة التي صرت اليها ان ابحث عن الكن في مضيف على ملك عجوز تعرف بـ « ميرواي » (Méroé) ، كانت رغم تقدمها في السن بشوشة . فقصصت ظروف رحلتي الطويلة وما ساورني من قلق عند رجوعي ، وشرحت لها اسباب عوزي الذي يرثى له . فما كان منها بادىء ذي بدء الا ان عاملتني معاملة غاية في الانسانية . فتكرمت علي بغذاء فاخر ، ثم سرعان ما قاسمتني فراشها تحت تاثير شهوة جامحة . لكن واحسرتاه ! ان قضائي ليلة واحدة معها كان بالنسبة الي بداية لعلاقة خسيسة لا نهاية لها ... لقد وهبتها الاطمار التي تركها قطاع الطرق طيبة منهم على جسمي لتسترني ، وتنازلت لها عن كل شيء حتى الاجر الزهيد الذي اتحصل عليه مقابل عملي عتالا ، وكنت لا أقوم به الا بقدر ما تسمح لي به بقايا حيويتي المطردة النضوب . وعلى كل فلقد رايتني منذ حين : تلك حالتي التي صيرتني اليها زوجتي الطيبة وسوء طالعي .

8 — قلت له : لعمري انك لتستحق اشنع مما صرت اليه لو كان هناك مصير اشد شناعة . أيعقل ان تبدل نعيمك داخل اسرتك بجحيم علاقة خسيسة مع بغي ؟ فقال وكان رعبا تملكه ، واضعا اصبعه على فمه : صه ، صه ! وجعل يحملق فيما حوله ليتأكد من أنه يستطيع التحدث بكل اطمئنان ، ثم واصل : « تمهل ، انها لامراة ذات مواهب شيطانية ، فاحذر لشأنك ان كنت لا تريد ان تجلب لنفسك المتاعب » وسألته : « ما تكون حقيقة هذه المرأة ، أميرة هذا الخان ، هذه المضيفة العاتية الجبارة ؟ » فقال : « انها لساحرة ، تحيط بالغيب ، ولها من النفوذ ما يمكنها من انزال السماء وترك الارض معلقة معطلة وتجميد الينابيع ..وتفتيت الجبال ، واحضار الارواح من الجحيم وانزال الالهة به ، وطمس النجوم ، وان تهيمن بسلطانها على ما امتد من هذه الارض ، الى الدرك الاسفل من « الترتار » (52) فقلت له : « ازح ، ارجوك ، هذا الستار الماسوي ، واطو هذا السجاف الاسود وتكلم بلغة الناس المالوفة » فقال : اتريد التعرف على واحدة أو اثنتين من مآثرها ؟ أم تريد معرفة أكثر من ذلك ؟ ... ان فرض

الحب على الناس بطريقة تفضي بهم الى الجنون ، أمر عادي وتافه بالنسبة الى « ميرواي » وليس ذلك على من يقطنون هذه البقاع فحسب ، بل على اهل الهند وبلاد الحبش كذلك ، بل على اهل اقاصي الارض . ولتضع الى ما قامت به على مرأى عديد من الشهود ، ومسمعهم » .

9 — « لقد تجرأ احد عشاقها على خيانتها ذات مرة ، فحولته بكلمة واحدة قندسا (53) وما ان انقلب هذا المنقلب حتى عمد الى قطع اعضائه التناسلية خوفا من ان يقع في قبضة القناصين . وكان لها جار يمتلك حانة ، وكان ينافسها ، فمسخته ضفدعة ، والمسكين يسبح الآن في دن خمر غارقا في رواسبه ، يحيي بنقيقه الاجش في أدب حرفاءه القدامى الذين كانوا يؤمونه لشرب خمرنه . اما المحامي الذي رافع ضدها ، فقد حولته كبشا ، فاصبحت المرافعة بذلك من عمل كبش . وحدث مرة ان تجرات زوجة احد عشاقها على السخرية منها سخرية لاذعة ، وكانت حاملا ، فحبست بسحرها الجنين في بطن تلك المراة ، والجنين ما انفك ينمو ببطء منذ سنوات ثمان . وهكذا حكمت عليها بحمل ابدي ، وجعلتها تحمل عبأها وبطنها امامها ممتد ، كانها ستضع فيلا . (54)

10 — ومثل هذه الفظاعات قد تكرر بكثرة ، وتضخم عدد ضحاياها ، فاثـارت بذلك سخـط الناس . فتقرر في اليوم الموالي (55) عقابها بان تقتل رجما . لكنها تنبأت بهذا العزم لما توفر لها من مقدرة وسحر . وقامت بما قامت به الساحـرة المشهورة « ميداي » (Medée) التي احرقـت ابنة الملك « كريون » (Créon) بلهب تطاير من تاج اهدته الى عروس عشيقها . وقد حدث ذلك في نفس اليوم الذي وهب لها فيه « كريون » التاج اجازة ، قلت : احرقت يوم الزفاف ؛ قصر الملك وابنته وعريسها . هكذا تصرفت « ميرواي » مثلما قصت علي ذلك في يوم غالبها السكر . أرادت ان تنتقم من سكان بلدتها . فلجأت في خشوع الى قبر تستلهم منه قوى سحرية فحبست جميع السكان في منازلهم بقدرة عجيبة لا تقهر مدة يومين كاملين ، حاولوا عبثا خلالهما تحطيم الاقفـال ، وخلـع الابواب ، وثقب الجدران ، ولما يئسوا من الخلاص صاحوا جميعا عمدت الى نقل كامل منزلـه من أرومه ، وهو مغلق ، الى مدينة تبعد مائة ميل ، وتقع في اعلى قمة جبل شديد الانحدار . ولما لم تجد مكانا يسع المنزل الجديد ، نظرا لالتحام المساكن ، رمت به أمام المدينة ، وانصرفت » .

11 — فقلت ان ما رويته ، يا عزيزي « سقراط » لمريع بقدر ما هو مدهش . واصارحك انك حيرتني ان لم أقل جعلت الفزع يأخذ مني مأخذا . اني لاشعر كأن الفزع قد تحول الى شظية ، بل رمح يخترق احشائي . اذا كانت هذه العجوز تملك مثل هذه القوى الشريـرة ، فباستطاعتهـا التعـرف على محادثتنا . فلنعجل بالراحة والاستسلام والنـوم حتى نقضي على تعبنا ، وقبل الفجـر نسحـر ، مغادرين هذا الخان سريعا . ومـا أن اتممـت نصحي ، حتى علا شخير « سقـراط » . لقـد استسلم المسكين للنوم ، اذ لم يعتد هذا التعب والارهاق ، أما أنا ، فقمت للباب احكم غلقه . وتأكدت من ثبوت المزلاج . ثم عمدت الى سريري المتداعي فجعلته وراء الباب ، زيادة في الحيطة ، حتى لا يفتح الباب الا اذا أزيح السرير . ثم تمددت فوقه . لكني لم أجد الى النوم سبيلا ... ان ما استولى علي من رعب ؛ جعل الكرى يجفوني في اول الامر .

وحوالي منتصف الليل ، أخذتني اغفاءة شعرت اثرها بهزة عنيفة ، لست أدري لم فكرت عندها أنها لا يمكن أن تكون من صنع اللصوص ، وشاهدت الباب يندفع أماما ، بعد أن اقتلع من مكانـه اقتلاعا ، وسريري يتحرك أماما ، ويميل من جهة رجل نخرها السوس ، ثم ينقلب فوقي .

12 — اني لا اعلم انه في حالات كثيرة ، تطغى علينا مشاعرنا ، فنعبر عنها بطريقة عكسية ، كان نبكي من شدة الفرح . وفي غمرة هذه الاحداث ، وقد استولى علي رعـب شديـد ، قهقهـت ، عندمـا تصورتني ، انا « ارسطومان » انقلب سلحفاة ، بقيت منبطحا تحت سريري ، استرق النظـر في انتظار ما سيجد من احداث ، فرأيت امرأتـين متقدمتين في السن ، قد مسكت احداهما بقنديل مضاء ، والثانية ماسكة اسفنجة بيد ، وسيفا جرد من غمد بالاخرى ، أحاطتا بـ « سقراط » وهو مغرق في نوم هادىء . وتكلمت حاملة السيف : « هذا هو « انديميون » (56) الغالي يا اختي « بانثيا » (Panthia) هـذا هو « قانيمـاد » (57) الذي عبث بزهرة عمري ، طيلة أيام وليال ، هذا هو الذي استخف بحبي ، ولم يكفه أنه عبث

بشرفي مقابل وعود كاذبة حتى أخذ يستعد للفرار ليجعل مني « كاليبو » (58) ثانية ، مهجورة من « أوليس » (59) المحتال تبكي وحدتها الى الابد » . ثم اشارت بيدها نحوي حتى تريني لصديقتها « بانثيا » . وواصلت حديثها قائلة : « اما هذا فهو « أرسطومان » نصيحه المخلص ، وهو صاحب فكرة الفرار . انه الان على قاب قوسين من الموت ، قابع على سريره ، يلاحظ كل ما يحدث . يظن انه سيفلت من عقابي بعد انتهاكه حرمتي . صبرا ، اني اريد بعد حين ، في الحال ، ان اجعله يكفر عن سخريته بالامس ، وفضوله الان » .

13 ـ وما ان سمعت هذا الخطاب ، حتى تصبب جسمي عرقا باردا ، واعتصر احشائي ألم حاد ، وانتفض جسمي انتفاضات متتالية ، جعلت سريري المتداعي يهتز فوقي اهتزازات مطردة . ثم تكلمت « بانثيا » الطيبة : « ما رايك يا اختاه » لو نعمد الى قطعه اربا ، مثلما فعلت « الباخوسيات » (60) أو نكتفه ثم نخصيه ؟ » وانطلق صوت حاد : « كلا » ـ ولا يكون الا صوت « ميرواي » ، فقد صرت أعرف الآن أسمها ، فقد تحدث عنها « سقراط » في حكايته ، « كلا» يجب أن يبقى هو على الاقل ، على قيد الحياة ، حتى يدفن جثة هذا المسكين في ارض رملية » . ثم عمدت الى احناء رأس سقراط يمينا ، وغرزت كامل السيف حتى مقبضه في الجانب الايسر من رقبته . ثم بسطت قربة ، لتمنع الدم المتدفق من الاراقة ، حارصة في الوقت نفسه على ألا تفلت منها ولو قطرة واحدة . لقد شاهدت هذا بأم عيني ، ولكي تحافظ « ميرواي » الحنون على كل المظاهر التي تجعل من ذبيحتها قربانا حقيقيا ، ادخلت كامل يدها اليمنى في الجرح ، وجعلت تفتش حتى اخرجت قلب رفيقي التعس . أما « سقراط » فكان آنئذ قد لفظ آخر أنفاسه ، بعد أن أتاح لزفرة ان تنطلق من جرحه ، تحت تاثير الطعنة التي شقت حنجرته ، ثم سدت « بانثيا » بالاسفنجة ثغرة الجرح الفاغر وقالت : « ايتها الاسفنجة يا ابنة البحر أياك أن تتحولي نهرا » . وبعد ذلك كله انزاحتا عن سقراط دافعتين سريري المتداعي ، ثم تقرفصتا (61) فاتحتين ما بين سيقانهما فوق وجهي ، وافرغتا علي ما في مثانتيهما من بول ، تركتاني فيه غريقا .

14 ـ وما كادتا تجتازان الباب ، حتى تسارع ما تفكك من الباب الى الالتئام من جديد . فالاطار ومصراعا الباب والاقفال والمزلاج ، كل أخذ مكانه كما كان من قبل . وكأن لم يحدث شيء . أما أنا فبقيت على حالتي تلك ملقى على الارض ، خائر القوى ، عاري الجسم ، مرتعدا من الخوف ، مرشوشا ببول المرأتين . فكأني ، على تلك الحال ، وليد لم تمض على وضعه برهة ، بل كنت ـ وان التعبير ليخونني لتصوير تلك الحالة التي كنت فيها بين الموت والحياة ـ خليفة لنفسي وامتدادا لذاتي وسائرا لا محالة الى الصلب .

ثم ثبت الى نفسي متسائلا : « ماذا سيحدث عندما ينكشف « سقراط » غدا صباحا مقطوع الرقبة ؟ يحسن بي أن أقول الحقيقة . لكن من سيحملها على الجد ؟ .. وسأجابه بهذه الاعتراضات والاسئلة : كان عليك على الاقل أن تستنجد . اذا كنت وأنت على هذه القوة عاجزا على مقاومة امرأة ، أيذبح رجل بمرأى منك ، وتلزم الصمت ؟ ثم لماذا لم تهلك أنت أيضا ضحية العدوان نفسه ؟ ولماذا لم تقض هذه القوة الجهنمية الغاشمة على آثار جريمتها خوفا على نفسها من الابلاغ بها على الاقل ؟ لقد نجوت من الموت ، فعليك أن تعود اليه .

وبقيت متجاوبا بين هذه الافكار حتى انزاح الليل . وقد بدأ لي أن ما يحسن المبادرة به هو الفرار خفية تحت جنح الليل . ورغم أنه مهرب ذو حظ ضئيل من النجاح . حملت اذن ادباشي ، وأدرت المفتاح في قفل الباب ، الا أن هذا الباب الامين المخلص الذي قد انفتح تلقائيا أثناء الليل ، قد أبى علي واستعصى ، ولم أتمكن من فتحه الا بعد عناء وجهد » .

15 ـ « كان باب الخان مغلقا ، وكان البواب نائما في المدخل ، حذو الباب . فصحت به : « يا هذا ، أفتح الباب فاني أرغب في الرحيل قبل طلوع الفجر » . فاجابني والنعاس يغالبه : « أمازح أنت أم جاد ؟ كيف تفكر في الرحيل في مثل هذه الساعة ؟ ألا تعلم ان الدروب تضج في مثل هذا الوقت باللصوص وقطاع الطريق ؟ ان كنت ارتكبت جرما جعل ضميرك يدفع بك الى الموت ، فانا لست أبله حتى أسعى مثلك بنفسي الى الموت » . فقلت له : « لم يبق لطلوع النهار الا وقت قصير . ثم ماذا تريد أن يسلب اللصوص من مسافر لا يملك الا الفقر ؟ أو بلغ بك الحمق درجة تجعلني مضطرا الى تلقينك انه

لو اجتمع عشرة من محترفي الجلاد ما تمكنوا من نهب رجل عار ؟ »

وكان البواب يتهاوى من شدة النعاس ، وكان النوم عاوده ، والتفت في اتجاه الغرفة التي غادرت قائلا لي : « من يثبت لي أنك لم تنبح رفيق سفرك الذي اصطحبك بالامس الى الخان ، وأنك لا تزمع الفرار نجاة بنفسك ؟ » آنئذ تمثلت كل ما وقع البارحة ، ورأيت الارض تنشق ، وبدأ الـدرك الاسفل من الجحيم بحارسه الكلب ، « سربار » (62) وقد هم بالتهامي . وعندئذ تبين لي ان امتناع « ميرواي » عن ذبحي لم يكن رحمة بي ، بل لان قساوتهـا جعلتهـا تفضل ان تترك امري الى المشنقة » .

16 ـ « وعدت الى غرفتي . وأخذت أفكر في طريقة أسرع بها في التخلص من الحياة . لكن حظي التعس لم يهبني من الاسلحة التي توفر لي الخلاص غير سريري المتداعي . فخاطبت هذا السرير قائلا : « يا سريري العزيز ، يا رفيقي في عديد من المحن عشناها معا . يا من عاش مثلي أحداث هذه الليلة أيها الشاهد الأوحد على براءتي عندما يتهمني الجميع ، اني لفي لهفة الى الرحيل عن هذا العالم ، فهبني سلاح الخلاص » . قلت هذا وشرعت أخلص الحبل الذي نسج منه المضجع . ثم اثبت احد طرفيه بخشبة ناتئة في الجدار تحت النافذة ، واتخذت من الطرف الاخر عقدة قوية تسع رأسي . ثم اعتليت السرير ، وادخلت رأسي في العقدة المتدلية واحطت بها عنقي ، ونية الهلاك تحدوني . لكن ، عندما ازحت برجلي من تحتي الركيزة التي اقف عليها ، من قبل ربط الحبل ، قصد اخلاء المجال لجسمي الثقيل حتى يتدلى في الهواء فينظم الحبل على حنجرتي انضماما ، وتتوقف بذلك أنفاسي ، تقطع الحبل فجأة ، فقد كان قديما باليا ، فسقطت في الفراغ ، ووقعت على « سقراط » . ثم تدحرجت الى الارض معه » .

17 ـ « كان البواب قد اقتحم علينا الغرفة في نفس تلك اللحظة ، وصاح بكل ما أوتي من قوة : « اين أنت ؟ ... أنت الذي كنت في الليل لجوجا على مغـادرة الخان ؟ ... ها أنت تشخر ملتفا بأغطيتك ؟ ... » . كان « سقراط » آنئذ قد أفاق . وكانت افاقته أما لشدة السقطة عليه ، أو لصراخ البواب المصم للآذان . ثم نهض قبلي وقال : « ليس لغير ما سبب أن يكره هؤلاء المضيفون ! انظر هذا الفضولي الذي لا أظنه دخل الغرفة الا ليختلس شيئا ما ، كيف ايقظني باقتحامه المباغت وصراخه المزعج من سبات عميق ما كنت استطيع منه فكاكا » .

فصحت ، وقد غمرتني فرحة جارفة بعد يأس قد طال : « مهلا ، أيها البواب الأمين . ها هو ذا رفيقي ، أخي الذي أضاع البارحة رشده سكرا ، وقد اتهمتني بقتله » . وكنت اثناء حديثي أعانق « سقراط » وامطره قبلا ، الا أنه نفر مني ودفعني عنه لما وجد في من رائحة كريهة منفرة هي رائحة البول الذي غمرتني به تلكما الشيطانتان . وصاح « أبتعد عني أيها الكريه . لكأنك مرحاض يتنفس هذه الرائحة النتنة التي تعبق منك » ثم سألني باهتمام بالغ : « كيف سمحت لنفسك ان تتطيب بهذا النوع من الطيب ؟ » عندئذ دفعتني حالـة الاضطراب التي كنت عليها على اختلاق بعض الاكاذيب الطريفة حتى أصرف تفكيره الى موضوع آخر . ثم وضعت يدي على كتفه قائلا : « ماذا ننتظر ؟ فلنرتحل حتى نتمتع بلذة السفر في الصباح الباكر » . وأخذنا الطريق ، بعد أن حملت متاعي الحقير ، ودفعت لصاحب الخان أجر المبيت » .

18 ـ ضربنا في عديد من السبل حتى اضاءت الشمس الكون كله واتجهت بالنظر في فضول متزايد الى عنق رفيقي والى الموضع الذي رأيت السيف ينغرز فيه خاصة . وقلت لنفسي : « أيهـا الغبي قد سكرت ، وفكرك الغارق في الخمر هو الذي زين لك تلك الاحلام العجيبة . هو ذا « سقراط » سليما في غاية الصحة لا خدش به . أين هو الجرح ؟ أين هي الاسفنجة ؟ وذلك الفلح العميق الذي احدث منذ وقت قصير برقبته ؟ ثم خاطبت « سقراط » : ان الاطباء المحنكين يرون ـ وهم محقون في ما رأوا ـ ان البطن المتخم أكلا وأن الخمرة ، يلجمان الانسان بأحلام مأسوية مزعجة (63) وتلك حالي . فقد شربت مساء الامس أكثر مما يجب من الخمر ، فقضيت لذلك ليلة مشؤومة قد خيلت لي صورا من الفزع والرعب ، حتى اني الآن أتصورني ما زلت ملوثا بدم بشري » .

قال « سقراط » ساخرا : « بالدم ؟ بل انـك ملوث بالخرء ! في الحقيقة أنا أيضا قد رأيت حلما . رأيت رقبتي تقطع وكنت أشعر بألم في حنجرتي وقد

خلت أيضا أن قلبي قد انتزع ، ولا أزال الى الآن لا أجد القوة على حمل نفسي ، وأشعر بركبتي تضطربان وخطاي منعدمة التوازن ، وبالحاجة الملحة الى تناول بعض الطعام الذي ينشطني من جديد » .

قلت : « مهلا . هو ذا فطور جاهز » ثم انزلت خرجي عن كتفي وسارعت باعطائه قطعة من الجبن الجيد ، معها خبز ، وقلت : « لنجلس الى هذا العيثام » (64) .

19 ـ بعد جلوسنا ، تناولت انا أيضا بعضا مما لدينا من مدخر الطعام . وجعلت أنظر الى رفيقي وهو يأكل بشراهة . وخيل الي أن قسماته قد تجوفت . وعلا وجهه شحوب الاموات ثم خارت قواه وحال لونه وتغيرت ملامحه تغيرا جعلني أنكره . وتملكني رعب تمثلت خلاله صورة أمراتي الامس الشريرتين . وما كاد يعتريني هذا التصور حتى تعطلت لقمة الخبز الاولى في حلقي وأبت أن تبتلع أو أن تلفظ أو أن تتحرك من مكانها . ومما ضاعف هلعي ، عدم وجود مارة . فمن يصدق أن رفيقين يوجدان معا يموت أحدهما هكذا دون أن يكون للثاني ضلع في قتله ؟ .

أما « سقراط » فكان قد اتى على جانب كبير من الأكل ، وازدرد قطعة كبيرة من الجبن ، مما جعله يشعر بظما شديد ، وكان يوجد قرب شجرة العيثام ، حيث جلسنا ، جدول ينساب فيه الماء انسيابا ، حتى لكأنه بركة هادئة ، وقد صقل سطحه ، فاذا اصباغه تحاكي اللجين أو البلور الذائب . فقلت مشجعا « سقراط » : « قم أرو ظمأك من هذا الماء ، فهو في عذوبته اللبن الطري » . فنهض وجعل يفتش بسرعة في الضفة عن مكان في مستوى سطح الماء ،وما أن وجده حتى جثم على ركبتيه وانحنى في نهم يروم شرب الماء . وقبل أن تلمس شفتاه سطح الماء ، انفتح الجرح في رقبته عميقا فاغرا ، وسقطت منه الاسفنجة فجأة ، وعلى اثرها انحدر خيط ضئيل من الدم الرقراق ، وكاد جسمه الذي أستحال الى جثة هامدة يسقط ـ ورأسه أولا ـ بكليته في النهر .

وبعد أن بكيت رفيقي التعيس ، ما سمحت لي به الظروف ، دفنته في تربة رملية كما تنبأت ميرواي الى الابد .

أما انا فقد الم بي الرعب والحيرة حول مصيري ، مما جعلني اتوغل في وحدة خرساء ، تائها في دروب منعزلة ، معذب الضمير من جراء جريمة لم اقترف ، وأوغلت في الظعن تاركا وطني وبيتي ، وهكذا حكمت على نفسي بالنفي التلقائي ، وها أني اليوم اسكن « ايتوليا » (Etolie) حيث تزوجت ثانية » .

ملخص الاحداث التي سبقت مسخ « لوسيوس » :

استمع لوسيوس الى هذه القصة في فضول واضح . ثم لم يلبث أن انخلع قلبه هلعا . فهو متجه الى مدينة « هيباطا » التي وقعت فيها احداث قصة « ارسطومان » و « سقراط » . ولما وصل الى المدينة صار ينظر الى كل الاشياء العادية نظرة حذرة . فلعل وراءها جميعا نفوسا بشرية محبوسة . وصل الى منزل « ميلون » (Milon) الذي يقصده محملا اليه برسالة من صديق له يوصيه فيها ب « لوسيوس » خيرا . وجد « لوسيوس » في « ميلون » مضيفه رجلا مرابيا ، هو اضحوكة كل جيرانه ، وهو بخيل بخلا شديدا . قضى « لوسيوس » في منزل « ميلون » أياما متفاوتة الاهمية ، حتى التقى بامرأة تدعى « بيران » (Pyrrhene) وهي سيدة من المدينة كانت صديقة والدته ، وقد شهدت أيام طفولته الاولى استظافته في منزلها . لكنه أبى احتراما للعجوز « ميلون » الذي يؤويه . فاكتفت بأن حملته معها الى منزلها ، وهناك حذرته من نزوات « بمبفيلاي » (Pamphile) زوجة « ميلون » وطيشها . فهي ساحرة من المقام الاول ، تقضي وقتها مجهدة نفسها في اجادة فن أستحضار الارواح وكاد « لوسيوس » يطير من ذلك فرحا وينفجر غبطة . فهو كان يتمنى أن يرى ساحرا يمارس سحره . فترك منزل « بيران » عدوا الى منزل « ميلون » ، وقد ضبط مخططا : أن يستميل قلب « بمفيلاي » ، حتى تعلمه أسرار فنها السحري ، لكنه أبدل فكرته ، فاختار أن يستميل قلب الخادمة « فوتيس » (Photis) ؟ فهي شابة جميلة تفيض أنوثة ، عكس « بمفيلاي » المسنة . ثم انها مطلعة على الكثير من اسرار سيدتها . وعزم على أن يربط الصلة بها . ويشرع في التنفيذ لتوه . ووجدها في المطبخ منهمكة في اعداد الطعام ، ونظر اليها من خلف فبدت له ممشوقة القوام رشيقة وقد سرحت شعرها بطريقة تبرز مفاتنها وتدل على نوق . ودخل معها في دعابة ، سرعان ما تحولت في أيام قليلة الى

علاقة متينة ... واستدعي ذات ليلة الى حفل ساهر اقامته « بيران » . وقد ملأ سمعه تلك الليلة حديث السحر واستحضار الارواح في المدينة . وشاعد فيما شاهد تلك الليلة ضيفا غريبا في مظهره . كان شعره طويلا يغطي اذنيه وفوق شفتيه العليا قطعة قماش تغطي كامل أنفه . وعلم ان ساحرة بالمدينة كان قد أكلت أذني تلك الرجل المسكين وأنفه . ولما عاد من الحفل الى منزل مضيفه ، وجد ثلاثة لصوص أمام المنزل ، فجرد سيفه وقتلهم ، دفاعا عن نفسه ، فيتهمه سكان المدينة بقتلهم . ويجر للمحاكمة أمام الملأ في مسرح المدينة . ثم يكتشف ، فيما بعد ، أن سكان المدينة قد سخروا منه وضحكوا كثيرا . فاللصوص الذين قتلهم ما هم في الواقع الا جلود أكباش ، قد خيلهم له سحر مضيفته « يمفيلاي » لصوصا .

وعندئذ سره . أن ما يسمعه ويشاهده من حوله ، وما جرى له من احداث قد ضاعف كله لهيب فضوله وجعله يذوب شوقا لمعرفة خبايا هذا السحر الذي اكتنفه من كل جانب ، واسراره . فيعمد الى الخادمة « فوتيس » يستعطفها ، لتمكنه منه .

ج ــ بداية المسوخ (65) :

1 ــ مر علينا ، أنا و « فوتيس » ، بعض ليال استسلمنا فيها للذاتنا الجسدية . وذات يوم رائق ، اقبلت علي في حالة هيجان لا مزيد عليه ، تركض لتعلن ان سيدتها ، لما رأت أن الطرق التي استعملتها لتحقيق ما يشغل قلبها قد استنفدتها بدون نتيجة ، عزمت على أن تكسو نفسها بريش طائر ثم تطير نحو حبيبها الذي تشتهيه . وأضافت قائلة : « لتستعد اذن ، ولتكن حذورا لمشاهدة هذا الحدث الكبير » .

وحوالي منتصف الليل صعدت صحبتها على اطراف قدمي ، محاذرا أن يصدر مني أدنى صوت ، الى الغرفة الواقعة في الطابق العلوي . ثم أمرتني باستراق النظر من ثقب الباب . واليك المنظر الذي كنت قد شاهدت : رأيت « بمفيلاي » تتجرد من ثيابها ، ثم فتحت صندوقا واخذت منه مجموعة من العلب ، وعمدت الى احداها فازالت غطاءها وأخرجت منها مرهما فركته بين يديها وجعلت تدهن به كامل جسمها ، من رأسها الى قدميها . وبعد أن خاطبت مسرجتها طويلا بمهمهمات غير واضحة ، جعلت تحرك أطرافها حركات متقطعة . وبينما كانت أطرافها تضرب الهواء بلطف ، بدأت تكسو جسمها تموجات من الزغب الناعم ما انفكت تنمو حتى تحولت الى ريش قوي صلب ثم التوى أنفها وغلظت اظافرها ثم عقفت . لقد انقلبت « بمفيلاي » بومة ، وبعد أن اطلقت نعيبا مجربة (صوتها) ، جعلت ترتفع عن الارض في قفزات كانت تكبر باطراد . ثم غادرت الغرفة من النافذة ، وطارت في الهواء ، وجعلت تحلق وما عتمت أن أوغلت في الفضاء .

2 ــ أما أنا ، فلم أكن قد سحرت أو خطف عقلي ، وانما بهرني ما كان يحدث أمام عيني وألقى بي في اندهاش كبير ، حتى خيل الي أني اصبحت كل شيء في العالم ، ما عدا أنا ، « لوسيوس » . ورغم اني كنت شديد الاعجاب بنفسي ، فقد انسقت ، وأنا يقظان ، في حلم ، وبقيت أفرك عيني حتى أتأكد من أن ما كان يقع لم يكن حلما . ولما افقت من دهشتي ، امسكت بيد « فوتيس » وأدنيتها من عيني وقلت : « هبيني ، أرجوك ــ وقد اتيحت الفرصة ــ برهانا تؤكدين به حبك لي ، أتوسل اليك بعيني هاتين اللتين هما عيناك ، يا عذوبة حياتي ، أن تمديني ببعض من نفس هذا المرهم . أصنعي لي معروفا ــ لا يمر ــ يجعل مني عبدك الابدي . فقالت « لقد ادركت حيلتك ، ايها الثعلب المحتال الظريف . أنك تريد أنْ توقع بي وتجعلني أسيء الى نفسي من حيث لا أشعر ، كيف يكون أمري ، أنا التي أبذل قصارى ما في وسعي لحماية هذا الغر المجرد من كل كل سلاح ، من شر هؤلاء البلوات التساليات (66) عندما يصبح طائرا ؟ أين أفتش عنه ؟ كيف القاه ثانية ؟ » .

3 ــ فصحت : « لتحمني السماء من ارتكاب مثل هذه الجريمة الشنعاء عندما اتمكن من التحليق ، ولو بأجنحة صقر ، سأجوب الفضاء العلوي ، رسول « جوبتار » الاعظم ، حاملا في زهو شعاره . سوف أكون مجنحا شريفا اعود الى عشي الصغير بعد القيام بواجباتي . اني لاقسم بغلاوة عقدة ضفائرك التي تشد روحي اليها اسيرة ، انه لا توجد امرأة في الدنيا أفضلها على عزيزتي « فوتيس » ! .. وعلى كل ، فاني عازم ــ عندما اتخذ بواسطة هذا المرهم شكل مثل هذا الطائر ، أن الازم الوحدة بعيدا عن العمران ...ان هذا المحب الجميل الظريف ليقنع بالتحول الى بومة حتى يبقى على سعادة المرأة التي يجد ، ألا ترين أننا نلجأ الى

أمساك هذه الـــطيور عندما تقتحم منزلا ما ، فنسمرها على الابواب حتى نبعد بواسطتها ما يهدد العائلة من كوارث قد تصيبها لما يحمل هذا الطائر من نذير شؤم ! لا تخشى إذن فان تحولي الى بومة سوف لن يغري النساء بي . لقد كدت انسى أن أستخبر . ماذا يجب علي أن اقول أو افعل حتى اجرد من هذا الـــريش وأعـــود الى حالتي ، « لوسيوس » كما كنت ؟ » .

فقالت : « من هذه الناحية تستطيع ان تطمئن . يمكنك أن تتخلص من هذا الريش بسهولة . لقد اطلعتني سيدتي على الوسائل التي تستعملها اثر كل عملية تحول ، حتى تعود الى شكلها الآدمي ... لا تخشى شيئا سوف تتأكد من كل ذلك تأكدا تاما عندما تشاهدني أنا ولها العلاج المنقذ بعد عودتها . سوف ترى حشائش ، رغم ضعتها وشيوعها تحدث المعجزات . قليل من شجر الشبث (67) مع أوراق شجر الغار (68) تلقيها في ماء نقي ، ثم تشرب منه وتستحم ، واذا أنت تستعيد شكلك الآدمي .

4 ـ بينما كانت تجدد لي تطميناتها ، بلغت الى الغرفة وهي ترتعش من شدة الاضطراب ، فأخرجت علبة من صندوق ، فمسكت العلبة وقبلتها ، والتمست منها ان تتيح لي تحليقا يغمرني سعادة ، وشرعت في نزع ثيابي بكل سرعة ، ثم غمست يدي في العلبة واخرجت كمية لا بأس بها من المرهم ، ودلكت بها كل جسمي . ثم شرعت لتوي في محاكاة الطائر الذي أريد أن اكونه ، وذلك بتحريك يدي مراوحة ، ولكن عبثا حاولت . فلا اثر للزغب ولا للريش ، الا أن شعري ، نعم شعري ، أخذ يتحول ساقا (68) وبشرتي الناعمة أخذت تتحول الى جلد قوي صلب . واما أصابعي فقد أخذ عددها يضطرب اذ تجمعت لتتحول الى حافر موحد ، ثم أخذ يخرج من اسفل صلبي (69) ذيل طويل .

لقد مسخت . وصارت هيأتي الآن بشعة : فم متسع ، ومنخران فاغران وشفتان متهدلتان ، ثم جاء دور اذني ، فجعلتا تكبران بافراط ويكسوهما شعر مكثف . انه لمسخ شنيع ، منعني بكل حسرة من امساك « فوتيس » بكلتا يدي . ولم أجد في هذا المسخ من تغذية الا استطالة اعضائي التناسلية .

5 ـ وجعلت اتفحص جسمي بكل مظاهره بعد أن جردت من كل وسيلة للنجاة ... فلم اشاهد من الطائر المنتظر الا حمارا ... عندئذ لعنت مسلك « فوتيس » ...لقد هزلت ولم يبق لي من الانسان لا الصوت ولا الحركة ، الامر الذي جعلني أكتفي بالنظر اليها جانبيا ، وشفتي السفلى متدلية في تضخم ، وعيناي مغرورقتان ، موجها اليها لوما أخرس .

أما هي فما ان رأتني على هذه الهيئة حتى جعلت تلطم وجهها بيديهـا الاثنتين ، وتصرخ قائلــة : « ايتها التعسة لقد فعلتها » . ثم واصلت : « ان اضطرابي وتهافتي جعلاني ارتكب حماقة ، وتشابه العلب أوقعني في الخطأ ، ومن حسن الحظ ان دواء هذا المسخ يسهل العثور عليه . يكفيك ان تلوك وردا حتى ينسلخ عنك شكل الحمار ، وتعود الى هيئة « لوسيوس » الحبيب .

6 ـ بمثل هذا كانت تسلي نفسها . أما أنا فرغم اني حمار تام الخلقة ورغم تحولي الى دابة زاملة ، فقد حافظت على ذكائي الانساني . وتداولت الامر بيني وبين نفسي . هل اعمد الى قتل « فوتيس » التعسة الاثمة ركلا بحوافري أو انقضاضا عليها بأسناني ؟ لكن حدسي جعلني اتخلى بسرعة عن هذا المشروع الذي لا ينم عن رؤية وتبصر . فلو عمدت الى قتل « فوتيس » عقابا على ما اقترفت ، لقضيت في الوقت نفسه على مصدر نجاتي الاوحد . فهـي وسيلتي الوحيدة للنجاة . وما كان مني الا أن احنيت رأسي ، وجعلت أحركه يمنة ويسرة واجتر ف داخلي خزيي المؤقت . ولان جانبي ، واستسلمت لوضعي الشائك . فانحدرت الى الاسطبـل حيث حصاني ، زاملتي الامينة . ووجدت أيضا حمارا آخر على ملك « ميلون » الـــذي كان منذ قليـل مضيفي .

وكنت افكر في ما اذا كانت توجد بين الحيوانات البكماء رابطة ضمنية (كالروابط بين الناس) ، اذن لسوف يتعرف علي هذا الحصان وتأخذه بي شفقة ، فيستقبلني استقبال الضيوف المبجلين ، ويكرمني اكرام السفراء . آه ، يا « جوبيتار » يا مكرم المسافرين وابناء السبيل ، يا من أويت في معقلك المقدس « حسن الطوية » وفقني في مسعاي .

لكن ما كاد حصاني والحمار يرياني اقترب من العلف ، حتى تدلت آذانهما هيجانا ، خوفا بدون شك على قوتهما اليومي . ثم اندفعا يركلانني ، ففررت من الاسطبل مشيعا برفساتهما .

وهكذا اطردت بعيدا جدا عن الشعير الذي كنت جلبته ـ البارحة بيدي الى حصاني الذي لا ينكر جميلا ... » .

• نشير الى أن النصوص المترجمة فيما يلي قد قمنا بها بمشاركة الاستاذ احمد العبيدي واعانة الاستاذ المنجي الدامرجي .

34)من ص 2 الى ص 27 من ترجمة « فاللات » (ج 1)

35) جبل في اليونان قريب من أثينا ، يبلغ ارتفاعه 1425 م

36) هو اسم يطلق على المناطق المنعزلة في جهة ما ، وهي ايضا تسميته للارض الواقعة بين بحرين والجامعة بين منطقتين .

37) الكيريتيون (Quirites) اسم سكان رومة نسبة الى « Quirinal » وهي احدى الهضاب حيث بنيت رومة .

38) تسالي (Thessalie) منطقة في اليونان على البحر الايجي ، تحدها سلسلة جبال الاولمب شمالا وجبال « البند » غربا وجبال « الاوتريس » جنوبا كانت تسالي وحواضرها في العهود القديمة مليئة بالاضطرارات الناجمة عن التنافس والعداوات بين العائلات وبين المدن . وهي منطقة قد اشتهرت باراضيها الخصبة وجيادها الاصيلة .

39) بلوتارك (Plutarque) : هو بلوتاركوس الاغريقي ، ولد في « خيرونا » (Chéronie) في مقاطعة « بيوسيا » (Béosie) حوالي سنة 50 م وتوفي حوالي سنة 125 م . كان كثير الاسفار . الف عدة رسائل في مواضيع مختلفة ضاع أكثرها .

40) سكتوص (Sectes) فيلسوف وفلكي وطبيب اغريقي عاش في القرن الثالث . ومن المرجح أنه ولد في « ميتيلان » (Mytilène) وعاش في الاسكندرية واثينا . كان رائد مدرسة « الشك » من 180 م الى 210 م . له كتاب اسمه « ضد العلماء » .

41) ما يكون في الترجمة بين معقفين ، هو من اضافتنا ، الى النص الاصلي ، ليستقيم التسياق العربي .

42) البواسيل (Poecile) : رواق مزدان برسوم من وضع « بولينيوت » من القرن الخامس ق . م .

43) الزج : الحديدة التي في اسفل الرمح ، ويقابلها السنان .

44) ايسكولاب : راجع التعريف به في حاشية عدد 3

45) أجيوم : (Aegium) مدينة في منطقة « أخاي » (Achaïe) على خليج « كورنث » . كانت تقع فيها اجتماعات الكونفدرالية الاخائية .

46) ايتولي اسم مدينة اغريقية تقع في منطقة جبلية شمال اليونان في خليج « كورنت » .

47) بيوسيه (Béotie) جهة من اليونان تقع في الشمال الشرقي من خليج « كورنت » .

48)كان عدد القضاء اربعة بالنسبة الى كامل ايطاليا وكان لكل واحد في منطقته نفوذ اداري وقضائي ولهم يعود امر تعيين الاولياء في مثل الحالة المشار اليها هنا . وقد أعاد تنظيم هيئتهم « ادريان » ثم اعاد اثباتهم « مارك أورال » في سنتي 163 و 164 م (ولهذا التاريخ أهمية كبرى بالنسبة الى تأليف « المسوخ » وقد كانت بلاد اليونان زمن كتابة المسوخ تحت سيطرة الرومان (انظر الهامش عدد 2 ـ ص 7 و 8 من ترجمة بول فاللات) .

49 « يتفيهق » ، هي ترجمة ل (Faisait des mots) أي يتشدق ويتكلف الكلام .

50) متصارعين يحترفان الجلاد ، ترجمة (deux Gladiateurs)

51) لاريسا (Larissa) مدينة يونانية توجد في منطقة « تسالي » كانت عاصمة الكنفدرالية التسالية الى موفى القرن الرابع . م .

55) هكذا في النص الفرنسي (ترجمة فاللات) ، دون تحديد وتدقيق .

52) الترتار (Tartar) اسم أطلقه الاغريق على الدرك الاسفل من الجحيم

53) القندس (Castor) حيوان مائي لبون من رتبة القواضم ، له ذنب مفلطح قوي ، ولون احمر قاتم ، يتخذ منه الفراء . معرب « كندسك » بالفارسية .

54) كان اليونانيون يعتقدون ان مدة حمل الفيل تدوم سنتين ، والحقيقة العلمية تضبط مدة الحمل بـ 22 شهرا . اما عند العامة قديما فمدة الحمل تدوم عشر سنوات (انظر حاشية عدد 3 . ص 10 من ترجمة « فاللات »)

56) انديميون (Endymion) : صياد شاب أحبته « سالاناي » (Séllénée) آلهة القمر ، انامته حتى تتمكن من تقبيله اثناء نومه .

57) قانيماد : (Ganymed) اسم اغريقي يطلق على نديم ، « جوبتار » اصبح اسما مشتركا يطلق على الشاب الوسيم أو الظريف .

58) كليبسو : (Calypso احدى حوريات البحر في الميتيولوجيا الاغريقية . كانت ملكة جزيرة « أوجيجيا » (Ogygie) في البحر اليوني . قد اقتبلت في جزيرتها « أوليس » الذي تاه في البحر بعد انتظار الهيلنيين على طروادة وأمسكت به عندها عشر سنوات .

59) أوليس (Ulysse) هو أحد أبطال الالياذة ، وبطل « الاوديسة » ، اللتين الفهما « هوميروس » . هجر « كايبسو » باذن من الالهة .

60) الباخوسيات (Les Bacchantes) نسبة الى « باخوس » اله الخمر الاغريقي وتقول الاسطورة انهن قطعن « بنتاي » (Penthée) اربا لانه ناهض عقدة الاله « باخوس » .

61) فضلنا توليد هذا الفعل على استعمال عبارة « جلس القرفصاء » .

62) سوبار (Cerbère) : هو في الميتولوجيا الاغريقية حيوان يشبه الكلب ذو ثلاثة رؤوس يحرس الجحيم .

63) هذا يتماشى مع نظرية افلاطون في الحلم ، اذ يرى أن كثرة الأكل وكثرة الشرب تسببان للانسان أحلاما مأسوية مزعجة (الجمهورية 9/ص 571 ـ الطبعة الفرنسية) .

64) العيثام : ترجمة لفظة (Platane) وهو شجر كبير من فصيلة البليات يعيش على ضفاف الانهر ومجاري الماء ، يزرع على جوانب الطرق وفي الساحات العامة ، قد يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا ، وهو معروف في أوروبا الجنوبية وآسيا الغربية .

65) توجد في الكتاب الثالث ، من الوحدة المعنوية 21 الى الوحدة 26 . من ص 77 الى ص 88 (ج ؟ 1) من ترجمة « فاللات » . والمتحدث هنا هو « لوسيوس » ، بطل « المسوخ » .

66) نساء منسوبات الى « تسالي » .

67) الشبث ، ترجمة (Aneth) نبات من التوابل .

68) الغار : ترجمة (Laurier) : شجر بري ، طيب الرائحة ورقه دائم الاخضرار .

68) ساق ترجمة (Crin) وهو خلط من الشعر مثل شعر الخنزير والحمار .

69) الصلب ترجمة (Echiné) وهو عظم في الظهر يمتد من الكاهل الى العجز وأسفل الظهر .

سماء جديدة

عبد الخالق كركاني ـ بغداد

للرجال المغنين ، تحت السماء
الجديدة ، صوت كصوتي ، ولى
دفء اجسادهم ، فابتكرنا لنا
حلما واحدا :
كلما اثقل الحب أجفاننا
أينعت زهرة
ـ في حدائق سرية ـ
دونها الجذر ، في
عتمة الارض ، يمتد ـ
يطفح بالشهوة الابدية
للشمس
والريح ـ
نحن الرجال المغنين نحلم بالشمس
والريح ـ
لكن اقدامنا اختارت الارض ، هل
يملك الجذر غير اختيار التراب ؟
انتظرنا ، على كل بوابة ، عودة الفاتحين
السبايا
الغزاة
انتظرنا الجميلة
كانت تواعدنا
كلما انتصف الليل والتهبت نجمة في السماء
الجديدة ، كانت تواعدنا ثم تنسل في
ذروة الانتظار الطويل .
ـ ترى نسيت أنها
غافلت نفسها ؟
ـ ام ترى نسيت
أنها استسلمت

عندما ارتعشت شهوة
وهي تختض .. تختض ؟ ـ
كانت تفاجئنا ، خلف ابوابها ،
ننشد الدفء ..
ـ في زمن حاصرتنا الحرائق ـ
نلتمس الحب ..
ـ نحن المغنين للحب ـ
كانت تغافلنا ، تستدير على
كل بوابة ، موعدا لغرام مضى
وانتظارا لعشق يؤرق احلامها .
انها اختصرت كل اعوامها الالف في
طلقة فرضت بيننا الصمت :
.... ايتها المستحمة بالنار قد
كنت حلما يراودنا في العشيات
ها انك ، الآن ، اجمل من كل احلامنا
انك الارض ..
والشمس
والريح ..
والوطن المزدهي
بالرجال المغنين تحت السماء
الجديدة :
ـ نحن الرجال المغنين نحلم
بالشمس ـ
والريح ـ
لكن اقدامنا اختارت الارض : لا
يملك الجذر غير اختيار التراب .

ويرفض الصرصار أن يموت

عمر التويجي

ها هو ياتيك
يرمي نفسه بين يديك
كان العمق يذبح زمن الشم
يشنق النمل يمشي ... كانت قدماي
تصطكان فوق رصيف المبكى ...
شرارات اللهب الاحمر تمضي .
يبقى الدرب ...

قامت قدماي فوق جبين العمر تنخر
شاة الذبح ..
كنت تاتي الحتف . ترقص فوق شلو احمر
خاطبك الناس ... القى العقم انفه فيك
ساد الجبن لما هوت رقع اليم ...

جئنا لا نعرف طعم البرد ... كانت سفن الملح تعبر بحر الموت ...
ثقبت قرب الماء ... جف الدود اليوم
(سوس) منه الحلق
تعوي قطط سود داخل ثقب
صارت تشكو لهب النهب ...
اسند راسي . كان الحائط يشهق ...
كان يرقص فوق السلب ...
يالون القيح ينز ... ذاب الجرح
وانا لم يترك مني العشق الا الوهم ...
ارحل يوم يسيل الثلج ...
تبزغ شمس بين ضلوعي ... تضحك عنها الارض
احمل قلبي فوق جبيني ...
امضي صوب الصحراء ...
واطل وعلى وجهي غبار وحروق ...

انسى الماضي يرقد تحت العمر ...
اخدش حسي ...
يحبل في الحزن والاعياء ...

اعبر جسر التيه من زاوية الموج
يعوي الحوت داخل الشك
يكبو فرس القرن الاجرد ... يمضغ طين البيع ...
وينادي العار الضوء ... تصلب كل الاهواء
تبقى حدقات الطين تصفر .
في الارجاء ...

كنت عند الفجر خيطا ينبت في الاعماق
يدخل في الاوصاف .
كنت مثل الزئبق يسري كالاشفاق
مات الحقد بقلبي . هيا ...
نجلد عصر الدعر . نقطع منه الساق ...
يمضي العمر ،
ينبت زهر الحب في الاحداق

عمر التومي